طبعة ثالثة

ربيع جابر

الفراشة الزرقاء

رواية



التنوير

ربيع جابر

الفراشة الزرقاء

رواية

التنوير

ربيع جابر

الفراشة الزرقاء

الكتاب: الفراشة الزرقاء/ رواية
المؤلف: ربيع جابر
عدد الصفحات: 192 صفحة

الترقيم لدولي: 978-9953-582-53-3

الطبعة الثانية: 2013

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

- 1 -

ولي ألفُ وجهٍ قد عرفْتُ طريقَه
ولكن بلا قَلْبٍ إلى اين أذهَبُ؟
«مجنون ليلى»

هناك في البداية حكايات جدتي عن أخيها الصغير، وعن جوزف وجورجي بابازواغلي، وعن معمل الحرير وصاحبه الفرنساوي بروسبر بورتاليس. حكايات سكنتني منذ أيام الطفولة لكنها لم تكن كافية كي تصنع رواية. فكان عليّ أن أنتظر. وبعد أن كتبت تسع روايات ونشرت ثلاثاً منها، وبعد أن تركتني «س.» ومضت بعيداً، إكتشفت فجأة أنني قد وصلت إلى البداية لتوي.

سأكتب رواية، قلت.

وقلت إنني سأبدأها بجنازة جدتي.

(الجنازة)

كان الثلج يغطي البلدة. مشينا تحت سماء زرقاء صافية. بعد المنعطف ظهرت غابة السرو. وكلما تقدمنا بانت الطريق المتعرجة التي تخترق الغابة حتى الجانب الآخر حيث المقبرة.

كتفي اليمنى كانت توجعني. رفعت يدي الأخرى ومسحت العرق عن جبيني. الرجل عن يميني كان يمشي منتصب القامة كأنه لا يحمل شيئاً.

شعاع الشمس ينعكس فوق صفحة الثلج ويخترق عينيّ. قشرة الثلج ما تزال قاسية تحت قدميّ. هناك ألم خفيف في حنجرتي ـ هذا من سعال الليالي الماضية. حين دخلنا الغابة خفت الضوء فجأة كأن يداً خفية إمتدت وأسدلت ستائر. هنا قشرة الثلج كانت أقسى. أنزلنا التابوت في الحفرة.

الخوري، الذي طالما أعطاني حبات الملبّس الزرقاء والبيضاء حين كنت صغيراً، بدا لي وجهه، بينما يفتح الإنجيل وينقل نظراته بين تابوت جدتي وبيننا، كأنه وجه شخص آخر ـ شخص لم أره في حياتي من قبل، ولا يشبه شخصاً رأيته صدفة.

حتى الآن لا أفهم ما الذي حصل لي في تلك اللحظة. نظرت حولي فرأيت أنني لا أعرف هذه الوجوه. أمي كانت هناك، وخالاتي الثلاث، وأبي أيضاً. لكن كأني لم أرهم من قبل. كأنهم لا أحد، كأنهم ليسوا. . . ليسوا ماذا؟

آخر ما أذكره ذلك الصوت ـ صوت الخوري وهو يحكي كأنه يغنّي أو يرتل. وكنت أدور حول نفسي وأسير مبتعداً. كانت الخطوات الكثيرة محفورة على الثلج أمامي. وخرجت عن الطريق، ودخلت بين أشجار الغابة وأخذت أركض كأنني أطير. وكنت أرتطم بالأغصان فتتساقط فوقي رقع ثلج. وكان الضوء يصفو ويزداد قوة، وقلت إنني وصلت إلى طرف الغابة، وكنت

أحسّ قدميّ خفيفتين كأنهما جناحان. وكان الهواء الذي يصفر قرب أذني ناعماً. وحين أخذ يقسو بعد وقت طويل، بدأ لهاثي يصل إلى مسامعي، وأحسست بأنفاسي تمزق رئتي، فأغمضت عينيّ وتركت لجسدي أن يهوي إلى حيث يريد، وكنت أقول إنني قد وصلت إلى النهاية، وأنني سوف أموت.

لم أمت.

وجدوني قرابة منتصف الليل. كانوا يحملون مصابيح كهربائية، وينتعلون جزماً طويلة الساق. مددوني في غرفة جدتي، ووضعوا جرابين جلديين مليئين بالمياه الساخنة قربي، ثم غطوني بالبطانيات. كنت أرتجف، كان جسدي يرتجف، وفتحت عينيّ وكان الضوء حاداً كالسكاكين ورأيت عبر غيمة شفافة تلك الوجوه ذاتها، وأغمضت عينيّ مرة أخرى، وحلمت أنني ما أزال في الغابة، وحلمت أنني قد مت، وحلمت أنهم ينتظرون الخوري حتى يفتح الإنجيل ويقرأ ما سيقرأه، كي يعودوا من حيث أتوا. وكان بمقدوري أن أراهم يحدقون في الأرض ويلعنون هذا الشتاء الذي يستمر رغم بداية الربيع، إذ نحن الآن في نيسان. وكان وجه الخوري مقطباً وكالحاً كوجه رجل يعاني من إمساكٍ مزمنٍ. وكنت أسمع الريح تمرق منسلةً بين جذوع الأشجار، ثم رحلتُ وتلاشيت.

لكني عدتُ.

بعد مضي أربعين يوماً على وفاة جدتي طلب أبي مني أن أسير معه قليلاً في الخارج. كنا جالسين في البهو، في الطابق السفلي من بيت جدتي، وكان الوقت عصراً، وكانت أمي تساعد خالاتي على جمع الكراسي أمام الباب بإنتظار وصول صاحبها الذي سيأتي لإستعادتها عند المساء. وكان المعزّون قد غادروا جميعاً بعد أن تناولوا طعام الغذاء.

مشينا صوب الغابة.

ـ كان نهاراً هادئاً، أليس كذلك؟

«حسناً، إنها ليست أمه. ولكن ماذا عن إبنتها؟ ماذا عن أمي؟ وخالاتي الثلاث؟ كيف يستطيعون كل هذه القسوة؟».

ـ كان نهاراً هادئاً، أليس كذلك؟ كرّر ثانيةً.

توقفت عن السير. إلتفت وسألني ما الأمر.

ـ ماذا تريد؟ سألته.

ـ ماذا أريد؟

وفكرت أن هناك أشياء لا تتبدل.

ـ إسمع، إذا لم تكن قد جلبتني إلى هنا كي تخبرني شيئاً فإنني أفضل أن أعود إلى البيت.

ـ لماذا تكلمني هكذا؟ أعرف إنك مستقل وكل هذا، لكنني والدك رغم كل شيء. كيف تكلمني بهذه الطريقة؟

ـ حسناً، من فضلك، قلْ لي ماذا تريد؟

خلال الدقائق التالية أخذ يسألني عن الجامعة، وعن أحوالي، وعن الكتابة.

ـ هل تكتب شيئاً هذه الأيام؟

ـ لا.

ـ كيف أحوالك؟

ـ بخير.

ـ والدراسة، هل تتعبك؟

ـ ليس كثيراً.

وبعد ذلك وصل إلى الموضوع الأساسي.

ـ ماذا ستفعل بالنزل؟

ـ لن أفعل به شيئاً.

ـ هل تقصد أنك لن تقوم ببيعه؟

ـ ولماذا أبيعه؟

ـ هل تعرف كم يساوي ذلك النزل؟

«لقد رمت بهم جميعاً في الحفرة، جدتي. وكل هذه المسرحية هي لإرضائي؟ هل يحسبون أنني استمتعت بجناز هذا الصباح مثلاً، أم ماذا؟».

ـ هل تعرف كم يساوي ذلك النزل؟

الغابة تواجهني. من هنا تبدأ طريق المقبرة. لا بدّ وأن الثلج لم يذب بعد في مطارح الظل. لكن الشتاء قد إنتهى بالتأكيد. لهذه السنة على الأقل.

ـ إنه يساوي ثروة. حتى وهو مهجور هكذا. وهناك كثيرون يدفعون ثمنه نقداً ما أن نحرك إصبعنا.

هل أقوم بذلك مرة أخرى، فأدور حول نفسي وأخترق الغابة راكضاً صوب أبعد نقطة؟ لكنهم سيعثرون عليّ مرة ثانية.

ـ لماذا لا تتكلم؟ قلْ شيئاً؟

ـ حسناً، سأقول. كم هو عمري؟

ـ ماذا؟

ـ كم أبلغ من العمر؟

ـ إثنين وعشرين عاماً.

ـ ذلك صحيح. وهذا يعني أن أصبعي ملكي، أليس كذلك؟ وإصبعي لن يتحرك لأنني أقول ذلك.

بقيت وحدي في بيت جدتي. أحياناً كانت خالتي الصغرى تأتي لزيارتي. ذلك كان خلال الأشهر الأولى. ثم لم تعد تأتي. وقبل أن تنتهي السنة استأجرت في بيروت شقة صغيرة تقع على مقربة من الجامعة. ذات صباح طُرق الباب بينما أرتدي ثيابي. كان ذلك أخي، وكانت زوجته تقف خلفه. أخبرني أنهما عادا من أستراليا قبل يومين فقط.

ـ ألن تدعونا للدخول؟

قلت له إنني آسف، وأنني تأخرت عن محاضرة مهمة، وأن عليّ أن أغادر.

ـ ماذا؟ ألن يعطوك الماجستير إن استقبلتنا دقيقتين؟

ـ «هل أغلق الباب في وجهه؟ لكنه يقف على العتبة. إنه في الداخل تقريباً. ساقه اليمنى على الأقل».

ـ حسناً، لكن بسرعة.

كما والده من قبله، أخذ أخي يسألني عن أحوالي، وعن الكتابة، وعن الجامعة. إستخدمت ذاكرتي، أعدت الإجابات ذاتها. لكنه تأخر كي يصل إلى الموضوع. أشعلت سيجارة ثم أطفأتها فوراً كي لا يسمح لنفسه بالبقاء مدة أطول، وتابعت الإنتظار لثوان قليلة أخرى.

ـ إن أمك تسأل عنك دائماً؟

«أمك؟».

ـ والوالد أيضاً.

«حسناً، هذا أفضل».

ـ لماذا تفعل هذا؟

ـ أنا؟

ـ نعم، أنت. لماذا لا تبيع النزل؟

«إنه يعرف. كلهم يعرفون. فلماذا السؤال؟».

ـ ألا تفكر بأمنا؟ ألا تفكر بأبينا؟

«ولماذا قرّروا هم أن ينسوها، أن يحولوها إلى نفاية؟».

ـ هل تعرف كم يساوي ذلك النزل، حتى وهو مهجور؟

«سأغادر. فليبقيا هنا. في النهاية سيذهبان. لا شيء في هذه الشقة يغري بالبقاء. سأغادر».

لكنهما غادرا قبلي.

مضت سنة على وفاة جدتي. تساقطت الثلوج مرة أخرى. نشرت رواية فنلت عنها جائزة. كانت ثاني رواية أنشرها، وإبتعت بالمبلغ الذي ربحته موسوعة «بريتانيكا». قررت أن أؤجل «رسالة الماجستير» لبعض الوقت. إزداد إستهلاكي للدخان والنبيذ. ذات ليلة فيما أخرج من بوابة الجامعة الرئيسية رأيتها تمشي على الرصيف المقابل. وعرفت فوراً أنني سأفعل المستحيل كي...

(كي...)

قال جوزف: كي تكون لي، كي تكون إمرأتي، كي أتزوجها.

آنذاك كان جوزف بابازواغلي في الخامسة عشرة من عمره. وكان يقطن مع أمه ومع جدّه العجوز ومع أخيه الصغير جورجي في كوخ طينيّ يقع عند طرف البلدة.

قال الجد العجوز: لكنك لا تملك شيئاً.

فتح جوزف كفّين كبيرتين أمامه. نظر الجد إلى الذراعين، نظر إلى الخدوش التي تغطيهما، ونظر إلى عينيّ حفيده.

قال الجد: حسناً، سأضمن لك الحقل الذي في كعب الوادي، وسنزرعه قمحاً. اذهبْ واخبرْ جورجي.

قال جوزف: وسليم.

قال الجد: طبعاً. طبعاً.

جوزف وجورجي وسليم. البلدة كانت تسميهم «الثلاثة».

(الثلاثة)

جوزف وجورجي بابازواغلي تعلما مع جدي في مدرسة «الداودية» في عبيه طوال خمس سنوات. جوزف كان يكبر جورجي بسنة واحدة لكن الجميع كانوا يحسبونهما شخصاً واحداً بسبب من الشبه العجيب بينهما. حتى جدي حين وجد نفسه يصادق جورجي، أدرك أنه في الوقت عينه كان قد بات صديقاً لجوزف أيضاً.

صباح كل يوم كان جدي يسابق الهواء إلى الكوخ الصغير القائم عند مدخل البلدة. هناك كان يجلس مع الأخوين قبالة جدهما العجوز ليستمعوا إلى واحدة من حكاياته الكثيرة قبل أن يمضوا إلى المدرسة.

فيما بعد تعطلت المدرسة، إذ صادرتها العساكر التركية.

وخلال تلك الفترة وقع جوزف في الحب.

(الحب)

وجد جوزف أخاه جورجي جالساً مع سليم قرب البئر. لوّح لهما من بعيد وزاد من سرعة خطواته.

ـ ما الأمر؟ سأله جورجي.

ـ جدي سيضمن لنا حقل الوادي لنزرعه قمحاً. قال جوزف.

ـ الحقل كلّه؟ سأل سليم.

ـ كلّه. قال جوزف.

نظر جورجي إلى عيني أخيه: لماذا يا جوزف؟

قال جوزف: كي. . . إسمعا: ذلك النهار، في طريق عودتنا من بتاتر، حين كنّا نمر أمام معامل بورتاليس، هل تتذكران؟

ـ ماذا؟ سأل جورجي.

ـ كانت هناك فتيات خارجات من المعمل، قال سليم.

ـ صحيح، قال جوزف، وبينهنّ رأيت التي سأتزوجها. أنت يا جورجي كنت مشغولاً بالنظر إلى السماء في تلك اللحظة.

قال سليم: صحيح. كان يراقب السنونو.

إلتفت جوزف: وأنت؟ هل رأيتها؟ فتاتي؟

نظر سليم بعيداً. كان يهزّ رأسه. وجورجي رأى عينيّ صديقه سليم وقال لنفسه إن النظرة فيهما كلّها مرارة ولا تشبه إلاّ نظرات جدّه العجوز حين يأخذه الشرود.

(نظرات سهيل بابازواغلي)

حين جاء إلى البلدة، وبنى كوخاً صغيراً من القصب والطين، كان سهيل بابازواغلي يرد على تحيات أهالي البلدة دون أن ينظر في أعينهم.

قالوا: هذا رجل في قلبه سرّ.

فيما بعد، عاشرهم وعاشروه، فأخبرهم السرّ. كانوا يعرفون كيف وصل إلى بلدتهم لأنهم كانوا يعرفون محتوى وصية إبراهيم بخعازي الذي توفي في السجن. لكن سهيل بابازواغلي لم يلبث أن حكى لهم عن أبيه أيضاً.

قال سهيل بابازواغلي: أبي يدعى يوسف، لكنني لم أعد إبنه. أمي ماتت وأنا صغير. وليس عندي أخوة.

(الإسوارة)

كان إسمه سهيل، وكان مكتوباً له أن يعيش غريباً، وأن يتبرأ أبوه منه وأن تصل به دروب القدر إلى حيث وصلت به. ولقد حصل ذلك على النحو التالي: كان يوسف بابازواغلي يريد لإبنه سهيل أن يصبح موظفاً حكومياً كبيراً مثله، لذلك أرسله كي يدرس في مدرسة الحكمة ثم نقله بعد سنتين إلى مدرسة الفرنسيسكان الداخلية. خلال هذه الفترة قضت ماري سرسق بابازواغلي نحبها، وبات سهيل يتيم الأم. وكانت ماري قد تعذبت طويلاً قبل موتها بسبب المرض القاتل الذي أصابها. وهذا المرض خلق واسطة تعارف قوية بين زوجها يوسف وبين الأطباء الذين قاموا بعلاجها، ومنهم الأميركان. وكان يوسف رجلاً محباً للعلم ولم يلبث أن عقد صداقة مع الدكتور والمرسل الأميركاني الشهير كرنيليوس فان ديك.

مرضت الأم وماتت كي تنشأ هذه الصداقة. ونشأت هذه الصداقة كي تضع سهيل على طريق جديدة، فإعجاب يوسف بصديقه الجديد قاده إلى قرار حازم: «سهيل سيصبح طبيباً». والدكتور فان ديك قال له إن ذلك ليس صعباً جداً.

«ليس صعباً، لكنه لن يحصل»، وحده سهيل كان يدرك ذلك. إذ فيما الأب يوسف يقضي وقته بين المعاملات الحكومية وبين الأخبار الغريبة لصديقه الجديد ولمجلة «المقتطف» العلمية، كان سهيل يجد لنفسه طريقاً أخرى إلى مستقبل غامض وخطر ولا علاقة له بمدخل الكلية الطبية الإنجيلية.

هكذا، وبينما الأب يوسف يقرأ آخر الكشوفات العلمية التي

قام بها «داروين»، كان الإبن سهيل يمد يده إلى الخزانة الزجاجية في الدكان المنفرد القائم عند مدخل سوق الجوهرجية، ويسرق أسوارة ذهبية.

لكن، في هذه المرة، لم تسلم الجرّة. رأى الصائغ الأسوارة لأن شعاع ضوء برق فوقها، فقفز من حيث كان جالساً ولم يهتم للأرجيلة التي سقطت وتهشم زجاجها، وركض مطارداً السارق.

(مطاردة في أزقة بيروت القديمة)

يقدر سهيل أن يركض في هذه المتاهة مغمض العينين. ولأن الزحمة شديدة، فهو يحس أنه سيتمكن من الزوغان والهرب. إنه خفيف، ومعتاد على هذه المطاردات تقريباً، لكن قلبه يطرق بعنف.

لماذا؟

بعد أن يقوم سهيل بسرقاته يمشي في الأسواق مثل متفرج، ثم يعود إلى المدرسة متسللاً قبل هبوط المساء، ويغلق على نفسه بوابة الحمام كي يتفحص غنيمته. في أحيان أخرى لا يلجأ إلى المشي كمتفرج بعد أن يقوم بعملية السرقة، بل يتخيل نفسه مطارداً من قبل صاحب الدكان ويعمد إلى الركض بأقصى سرعته، وذلك على سبيل التمرين.

هذه المرة ليس الأمر تمريناً.

كان الآن عند آخر سوق أبي النصر، والتفت إلى خلف، وكان يلهث وأنفاسه الساخنة تخرج كالبخار وتصنع غيمة عابرة أمام عينيه، وفكّر أن الصائغ الأعرج لن يلحق به، فهو يقوم

بمراقبة الدكان منذ أيام وهو متأكد أن الصائغ أعرج لأنه رصده مراراً فيما ينهض ويسير الخطوتين إلى مؤخرة الدكان كي يجلب التنبك لأركيلته التي تبقى مشتعلة من الصباح إلى المساء، ولا تتوقف مياهها عن الغرغرة إلاَّ ساعة واحدة عند الظهيرة، إذ يجلب أخذ الصبيان طعام الصائغ على صينية. لا، لن يلحق الصائغ به، خصوصاً وأنه نفذ هذه العملية عند العصر، حين يهبط النعاس على الصائغ ويميل على جانبه ويتجشأ، ويكون الصبي قد ذهب بالصينية الفارغة إلاَّ من فتات خبز يابس وحبة أو حبتي زيتون وعرق ذابل من البقدونس. لا، لن يلحق به، لأن التنباك سيجعل جسمه ثقيلاً وأنفاسه مقبوضة.

إرتاح سهيل، قال لنفسه إن الصائغ قد كفّ عن مطاردته، وأخذ يتهادى في سوق الأرمن وهو يصفر ويتخيل بريق الأسوارة المستقرة داخل ثيابه. هذه غنيمة دسمة، هذه غنيمة لا تؤخذ إلى حمام مدرسة، هذه غنيمة يتم التخلص منها خلال لحظات قليلة، وسهيل يعرف ذلك.

إبتاع كعكة محمصة ومليئة بالسماق المسحوق، وشرب كوباً من عصير الليمون المبرد بالثلج الناصع البياض. يحب طعم هذا الثلج الذي لا يذوب إلاَّ بعد أن يصنع بخاراً على جوانب الكوب. ويعرف أنهم يأتون به من الجبال حتى في عزّ أيام الصيف، لأنهم يحتفظون به في المغاور الباردة، ولا ينقلونه إلى الساحل إلاَّ خلال الليالي الرطبة الهواء.

إنعطف إلى اليمين قاصداً سوق النورية. هناك بحث عن زكريا. إنه يتعامل معه منذ أشهر معدودة. لا يعرف ما هي

عائلته، لكنه يعلم أنه يملك زبائن لبضاعته ولأي نوع آخر من البضائع المسروقة، حتى الكتب. لكن سهيل يفضل أن يحتفظ بالكتب التي يسرقها، فلا يبيعها إلاً خوفاً من أن يجدها أساتذته ملفوفة في كيس خيش فوق سقف الحمام، لأن الكيس حين يمتلىء وينتفخ تماماً يبدو ظاهراً لأعين الأساتذة الطوال القامة إذ يعبرون الممر وهم يرفعون رؤوسهم ويفكون الأحزمة التي تزنرهم فيما يتوجهون نحو الحمام.

وضحك سهيل لنفسه، ونسي الصائغ ومنظره وهو يقفز كالحجلة الجريحة ويسقط الأركيلة على الأرض كي يلحق به، وضحك مرة أخرى، ودار حول الجامع الصغير ونظر إلى الزاوية حيث يقف زكريا عادة.

لم يكن هناك. ومشى سهيل حتى الزاوية الفارغة من زكريا، ومرق رجل يحمل قفصاً من الدجاج، وكانت الدجاجات الكثيرة المحبوسة في القفص الصغير المصنوع من القصب تتقافز متصايحة، والريش الأبيض يتساقط من بين عيدان القصب ويتطاير في الهواء الربيعي البارد، واستدار سهيل ونظر إلى الدجاجات وفكّر أنها مخلوقات بائسة.

من هذه النقطة تتفرع الطريق إلى طريقين. واحدة تصل إلى كنيسة الموارنة القديمة، وأخرى تمضي بإتجاه زاوية الإمام الأوزاعي. وقف سهيل قرب عربة خشبية صُفت فوق سطحها المربع العقود المصنوعة من الخرز الملون، وأخذ يراقب العابرين. وحين رفع نظره إلى السماء رأى أن الرياح كانت تكشح الغيوم بعيداً، وأن السماء كانت تتألق وتزداد زرقة لحظة بعد

أخرى، ورأى إحدى الغيوم تفقد ذيلها وتبدو فجأة مثل رسم ثور، وتذكر صديقه جرجي وفكر أن يمضي حتى بوابة السرايا ويخرج إلى ساحة البرج ويذهب ليجلس معه حتى تغيب الشمس، ثم قال لنفسه إنه سيؤجل هذه الزيارة حتى الغد كي يتسنى له أن يعثر على كتاب أو كتابين من الكتب الإنكليزية التي يحبها جرجي فيأخذها إليه، وكانت الغيمة التي تشبه ثوراً قد فقدت نصفها الأيمن وتحولت إلى غيمة تشبه ثوراً مقطوع الرأس ومطعوج الأطراف، وضحك سهيل، وعاد إلى مراقبة عابري الطريق.

فجأة، وسط زحمة خفيفة قادمة من جهة اليمين ـ من حيث كان قادماً قبل لحظات ـ أحسّ سهيل أنه مراقب. تلفت حوله مسرعاً، لم يكن أحد ينظر صوبه. لكن قلبه بقي يخبط بعنف. بلى، أحدهم يلاحقه، بالتأكيد.

قفز راكضاً في الطريق المؤدية إلى كنيسة الموارنة وتجاوز الكنيسة وقفز فوق السور الحجري القصير ورمى ما تبقى من الكعكة أرضاً، وإنسل بين أشجار البستان التابع للكنيسة المسكوبية، ثم خرج إلى الباحة المربّعة الواقعة أمام مدخل الكنيسة. كان يلهث مثل مجنون، والعرق يسيل حتى أطرافه، وفي اللحظة ذاتها قُرعت الأجراس.

لماذا تُقرع الأجراس الآن؟

كأن المطارق تهوي على رأسه. كأن رأسه كرة الحديد التي تتدلى في جوف الجرس كي تقرع جوانبه، كأن رأسه جرس ـ جرس نحاس أصفر كبير.

كان الآن محاطاً بالكنائس ودويّ الأجراس يقرع في رأسه. كأنه داخل الكنيسة، كأنه يشم تلك الرائحة الفوّاحة مرة أخرى. هل هي رائحة البخور أم رائحة أمّه المسجاة في التابوت؟ خلفه الكنيسة المسكوبية، وهو يدوخ، ويرى قبالته كنيسة مار جرجس الأرثوذكسية القائمة فوق مغارة التنين، وخلف هذه الكنيسة يظهر له البرج الحجري العالي لكنيسة مار إلياس الملكية.

استجمع أنفاسه، توازن، ومرة أخرى أخذ يركض. عيناه لا تبصران حدود الأشياء. قطرات العرق تسيل فوق رموشه. جسده يرتطم بالمارة. كان وسط ساحة الخبز ثم وصل أمام خان سعيد آغا. وقرّر أن يختفي في حمامات الجهة الشرقية. لكنه فجأة تذكر أنه قد يجد زكريا في خان التوتة أو خان الحرير لأن زكريا كثيراً ما يمضي إلى هناك في مثل هذا الوقت من النهار. تردد سهيل إلى أين يتجه، وفي تلك اللحظة القصيرة سقطت يد ثقيلة على كتفه.

إلتفت فرأى الوجه الأحمر، والعنق المنتفخة.

كان ذلك الصائغ الأعرج. وجرّه من شعره عبر الأسواق. سوق الصرامي ثم سوق سرسق ثم سوق النجارين. وكان الناس يفسحون الطريق أمام الصائغ وغنيمته، ويصطفون على جانبي الزقاق الضيق مراقبين الغنيمة وهي تنتفض وتهدأ ثم تنتفض مجدداً. ولم يعد سهيل يبصر إلاّ العباءة الزرقاء الحريرية للرجل الأعرج، وكان الضوء يلمع فوق ثنيات العباءة ويخترق عينيه. وفهم سهيل على نحو ما أنه سوف يموت. وكانت الأسوارة ما تزال داخل ثيابه وتساءل لماذا لم يأخذها الأعرج بعد؟

قرب زاوية المغربي أبصر زكريا. واستدار زكريا ومشى مبتعداً وإختفى بين باعة كانوا يخرجون من دكاكينهم مسرعين كي يتفرجوا على المنظر. وكان هناك بين الباعة من بقي متربعاً أمام أرجيلته وبين بضائعه، وإكتفى بمدّ رأسه للنظر من مطرحه المرتفع عن الزقاق قرابة نصف المتر. وبين هؤلاء رأى سهيل وجوهاً كثيرة طالما راقبها قبل أن يقوم بعملياته ضدّها. وتساءل هل تعرّفوا على وجهه، ثم توقف عن الإنتفاض وترك اليد القاسية تجرّه كما تريد.

في مرة واحدة حاول أن يعض الذراع التي تجره. لكن الصائغ توقف فجأة واستدار ولطمه باليد الأخرى على أنفه. وأحسّ سهيل أن وجهه قد تغطّى بالثلج كأن الصائغ قد خبطه بكتلة قاسية من الثلج المتجمد، وأغمض عينيه.

حين فتح عينيه أدرك أنه في سوق الفشخة. فوق رأسه كانت هناك حبال ممدودة بين جانبي الزقاق. من هذه الحبال تتدلى سلال. والسلال كانت تتحرك من جهة إلى الجهة الثانية بواسطة نظام بسيط من العجلات. كم مرة وقف هنا وراقب حركتها؟ إنه يعرف أسواق هذه المدينة كما يعرف راحة يده. يعرف كيف تتبدل الرائحة بين زقاق وآخر. يعرف رائحة الزحمة عند مدخل سوق الدباغة، حيث البوابة الحجرية المتداعية، ويعرف رائحة الحيوانات التي يسلخ جلدها في آخر السوق، ويعرف الرائحة الناتجة عن نزول الدم الأسود بين بلاطات رصيف الميناء القريب إذ تمتزج برائحة ملح البحر وبرائحة بقايا البنّ الفاسد الذي يتساقط من الأكياس الكبيرة فيما يرفعونها من الزوارق الطويلة إلى

ظهور البغال. يعرف تلك الروائح كلّها ويعرف كيف تتبدّل مع تتابع الفصول. ولا يحب رائحة كما يحب رائحة الليمون خلال فصل الشتاء، ولا يكره رائحة كما يكره رائحة النفايات المتخمرة في الوهدة الصغيرة غربي باب يعقوب.

إنه يعرف هذه الأسواق كما يعرف راحة يده. جورجي أخبره أن حكماء بلاد الصين يعرفون مصير الإنسان من قراءة الخطوط المرسومة على باطن كفه. لكن ذلك في الصين، قال سهيل.

هل إنتهى كل شيء؟ هل هي النهاية؟ ماذا تقول الخطوط؟

كان ينطّ من نافذة الطابق الثاني حيث تتوزع أسرة الطلاب في صفين متقابلين. كان الطابق كلّه عبارة عن قاعة فسيحة واحدة. وأما الحمام فكان في الطابق الذي يعلوه، ومن الحمام كان الممر الطويل يمضي حتى صحن الدرج، وهناك كان الممر ينعطف بإتجاه غرف الأساتذة. أما الصفوف فكانت في الطابق السفلي، وبالقرب من الصفوف كانت قاعة الطعام.

ينطُّ من النافذة العالية ثم يتسلل عبر البوابة الخلفية للحديقة ويخرج إلى الطريق المبلطة بالحجر البحري الناعم. يخطو محاذراً كي لا تزلق قدمه لأن هذا الجزء المنخفض من الطريق يبقى مبللاً في أغلب الأوقات، ثم يهبط المنحدر القريب، وهو يدرك أنه قد أفلت كالعادة.

يضع الوجوه العابسة والأثواب الطويلة خلفه ويمضي إلى وسط المدينة. هذه الأزقة كلّها ملكه. إنها قذرة وضيقة، هذا صحيح، إن الرائحة تفوح من جدرانها الرملية، هذا صحيح، إن

أرضها زلقة وخطرة ومليئة بالحفر، هذا صحيح، لكنها أزقته وفيها يتحرك كما يريد ويفعل ما يشاء.

فقط يقفز فوق برك الماء. يأكل كعكة بزعتر أو بسماق، يشرب عصير ليمون أو عصير تفاح، وحين لا يجد مالاً في ثيابه يسرق أي شيء، وزكريا يدبر المسألة. وحين يسرق كتاباً ما يخبئه إلى وقت لاحق أو يمضي به على الفور إلى لوكندة زيدان الواقعة على ساحة البرج. هناك يجلس مع صديقه جرجي، فيطبخ لهما أبو جرجي يخنة خضار بلحم الموزات الخالي من الدهن، ويتبادلان الحديث. هو يخبر جرجي عن صعوبة تعلم اللغة اللاتينية، وجرجي يسأله عن مدرسة الفرنسيسكان وهل يتعلمون اللغة الإنكليزية أم لا، وإذا كانوا يتعلمونها بألفاظها القديمة أم الجديدة و. . .

جرجي يشتغل مع أبيه في اللوكندة حتى منتصف كل ليلة. يساعد في إشعال النار وفي تنظيف الخضار وتقطيعها، وفي تحريك محتويات القدور النحاسية الكبيرة بالملعقة الخشب الطويلة، وفي تسجيل حسابات الزبائن على دفتر المحل الأصفر العريض. وفي الوقت نفسه يعثر جرجي على ساعة أو ساعتين في كل نهار كي يمضي عند المعلم سعود ويتعلم الإنكليزية مقابل ستة فرنكات في الشهر. وفي الليل لا ينام لحظة واحدة، ويسهر على ضوء قنديل الزيت، ليقرأ تلك الكتب التي يجلبها له سراً صديقه سهيل.

هل هي النهاية؟ .

واستدار الأعرج ومضى عبر الساحة أمام السرايا، وخرج من

البوابة. ورأى سهيل السور المتداعي يبتعد عنهما رويداً رويداً، وعرف أن الصائغ يتجه نحو البرج. وقال لنفسه إن جورجي سوف يراه. وفكّر سهيل بأبيه وكان يعرف أنه في دير القمر، وكانت قبضة الأعرج قد ارتخت قليلاً، وحين إلتفت سهيل رأى القاعدة الحجرية التي كانت تحمل برج الكشاف فيما مضى، وبعد ثوانٍ قليلة بان طرف الرصيف قدّام لوكندة زيدان. وكانت هناك عربة تجرها أربعة أحصنة تدور في وسط الساحة، وقال سهيل إنه يعرف: سوف يخرج جرجي ويراني ويعرف أنني لا أحد: لست الأول في مدرستي، ولن أدخل إلى كلية الأمريكان أبداً. ويعرف أنني لست إلاّ سارقاً ـ وسارق ماذا؟

وفكّر بالأسوارة، ورفع رأسه، وكان الأعرج قد توقف كي يلتقط أنفاسه. وتساءل سهيل من يحرس دكان الأعرج في هذه الأثناء، وكان ضوء الشمس ما يزال ينير الفضاء بشعاع برتقالي بارد، ورأى سهيل العروق النافرة في عنق الأعرج، وراقبها تنتفخ وتتضخم، وقال إنه قد وصل إلى آخر الطريق، وأن شيئاً لم يعد يهم، وفتح فمه ورفع جسمه قليلاً ثم غرز أسنانه في معصم الأعرج ونزل بجسمه صوب الأرض.

(سجن السرايا)

أخذ الجنود سهيل إلى السراي، حيث حبسوه في الطابق السفلي مع بقية المحبوسين. وحين وصل الخبر إلى يوسف بابازواغلي تبرأ من إبنه على الفور.

هكذا قضى سهيل بابازواغلي ثلاث سنوات يلعب بالورق مع رجل من بلدتنا اسمه إبراهيم بخعازي.

(جملة اعتراضية)

لماذا كتبت «بلدتنا»؟ إنها بلدة جدتي. إنها بلدة جدتي لأمي، وهي أيضاً بلدة جدي لأمي، ولكنها ليست بلدتي أنا. فكما يفترض، يجب أن تكون بلدتي هي بلدة أبي. أو في حال أردت أن أجعل بلدتي المكان حيث ولدت فعندئذ تغدو بلدتي بيروت، لأني ولدت في بيروت.

ذلك رغم أن بيروت ليست بلدة بل مدينة.

لكن لماذا كتبت «بلدتنا»؟ أعتقد، ولست متأكداً، أنني وضعت نفسي للحظة خاطفة في موضع جدي. فكأنني أجلس هناك، بدلاً منه، بين الأخوين بابازواغلي، وأستمع إلى الجد العجوز، سهيل بابازواغلي، وهو يروي قصته.

(سجن السرايا)

حُكم إبراهيم بخعازي بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة القتل؛ بعد أن مُنح أسباباً تخفيفية، إذ أعلن ثلاثة شهود عيان أنه كان يدافع عن نفسه، وأن مراقب العمال مات بطعنة السكين التي أخرجها هو نفسه من تحت ثيابه كي يضرب إبراهيم بخعازي بها. وكان هؤلاء الشهود الثلاثة أُجراء مثل إبراهيم بخعازي في أشغال جرّ مياه نهر الكلب إلى بيروت. وهي الأشغال التي تعهدتها شركة تونان الفرنسية لفترة قصيرة ثم باعتها إلى شركة ووتر وركس ـ كومباني الإنكليزية في عام 1871.

وكان إبراهيم بخعازي مصاباً بمرض السلّ. والرائحة التي تخرج من جوفه تبعد عنه المساجين جميعهم. وكان يقضي أيامه وحيداً في الزاوية. يراقب الآخرين وهم يلعبون بالورق ويقامرون

على بعض الخبز، وينتظر قدوم المساء كي تخفت أصواتهم قليلاً. وفي الليل كان يصغي إلى نباح الكلاب التي تسيطر على أزقة المدينة.

مرّت السنة الثانية على إبراهيم بخعازي، ففكر أن السنين القادمة ستشبهها. لكن، بعد وصول سهيل بابازواغلي، تبدّل كل شيء.

(الوصية)

عند نهاية سنته الخامسة في السجن، وذات صباح شتائي بارد، توفي إبراهيم بخعازي بعد ليلة طويلة من الألم والصراخ. كان الدم يخرج من رئتيه ويخنقه، وكان يبكي، وإلى جانبه كان سهيل بابازواغلي راكعاً وفي يديه الفوطة المبللة بالدم. والسجناء الآخرون كانوا يتكومون لصق الجدار في الجانب الآخر من الغرفة الكبيرة.

في الأيام التالية إكتشفت بلدتنا حكاية الوصية. بلى، إتضح أن إبراهيم بخعازي كان قد صادق رجلاً في السجن واختار أن يترك له قطعة الأرض الصغيرة عند مدخل بلدتنا. تلك الوصية سيحتفظ بها سهيل بابازواغلي في صندوق خشبي كصك ملكية. وبعد موته سينتقل الصندوق إلى عهدة حفيديه. وبعد هجرة الأخوين بابازواغلي سيبقى الصندوق في الكوخ، مخبأً في الزاوية حيث تطوي أمهما البطانيات. وبعد وقت طويل ستعثر خالتي الصغرى على الصندوق ذاته في غرفة جدتي، وفي داخله الوصية المذكورة نفسها، وقد أمحت كلماتها بسبب من حبر الكوبيا الذي سال مع مرور الزمن.

فقط السطور الأربعة الأولى ما تزال واضحة. أعرف أنها واضحة لأنها أمامي، على هذه الطاولة، حيث أكتب هذه الرواية، فيما الأصوات القادمة من الخارج تصدّع رأسي. وأعرف أيضاً أنها واضحة لأنني أقرأها للمرة الألف:

«أنا إبراهيم عبد الأحد بخعازي، بيان الوصية الذي وصيتها على يد الأب بطرس والأب أغناطيوس، بصحة عقلي وجسمي من غير إلتزام، وهي كمال الشريعة الكنايسية والروحية وتسليمي في حياتي ومماتي. واجب قداديسي...».

وما تبقى بقع زرقاء داكنة.

(سماء زرقاء مع غربان)

الحقل كان في كعب الوادي، وكان محاطاً بالأحراج، وبالتالي محتجباً عن أعين الجنود. وعند طرف الحقل بنى «الثلاثة» خيمة من الأغصان والوزال، وفرشوا فيها بطانية للجد العجوز.

في البلدة، كانوا يقولون إن سهيل بابازواغلي شاخ في لحظة واحدة. كان ذلك قبل ولادة جورجي، وأم جوزف كانت حاملاً. كان الوقت عصراً، وكان المطر قد بدأ يتساقط قبل ساعة أو ساعتين فقط. جاء فلاح من البلدة المجاورة وقال إن أبو جوزف قد مات. كان يعمر حائطاً لأحد الجلول، ووقع الحائط عليه.

بسبب المطر، قالوا، زلق التراب تحت الأحجار فوقعت.

وتكلل رأس سهيل بابازواغلي بالبياض.

في الخيمة، حين يغفو عصراً، كان سهيل بابازواغلي يحلم

أن إبنه لم يمت آنذاك وأن الحائط لم يسقط أصلاً. لكنه، في كل مرة، كان يستيقظ ويلمس التجاعيد التي ملأت وجهه، فيعرف أنه خسر إبنه ويوشك على البكاء. فيما بعد يشرب من إبريق الفخار وهو يفكر بحفيديه ويبتسم، ثم يلف لنفسه سيجارة ويدخنها.

قبالته يمتد سهل القمح. المكان هادىء هنا. السنابل صفراء وطويلة، وحين يأتي النسيم لا تميل معه لأنها ثقيلة، وحين تميل تبدو كأنها لن تستقيم مجدداً. هذا الصباح صعد جوزف وجورجي وسليم إلى عاليه ليشتروا المناجل. هو قال لهم أن يصعدوا بالقطار الحديدي ويعودوا بالعربة الديلجانس. أيضاً دلّهم على دكان الشيخ محمد جابر لأن الشيخ صديقه ولن يغشهم بالسعر.

خلال الأيام الماضية جاء إلى هنا الكثير من أبناء البلدة كي يتفرجوا على الحقل. نهرا الخوري نزل إلى بيروت نهار السبت الماضي، وعاد منها صباح الأحد، ومضى على الفور إلى الكنيسة وأخبر الذين يحضرون القداس أن الناس في بيروت قد بدأت تموت من الجوع.

لقد مرّ في سوق الفشخة فوجد جميع الدكاكين فارغة ومهجورة. دكاكين سعد وربيز وسالم وبارودي وبارك وغريزي، كلّها مغلقة. والسوق كلّه، من فمه إلى ذيله، ليس فيه دجاجة واحدة. وقرب باب إدريس رأى طنابر محملة بالجثث. وأمام سرايا البرج شاهد العساكر تدفع النساء الجائعات عن بوابة المخزن الكبير.

ـ والرائحة. يا لها من رائحة!

وقال إن السكر والأرز والحبوب كلّها لا تصل إلى بيروت

لأن جمال باشا قد أمرّ بذلك. وقال إن البحر مقفل في وجه السفن وقال إن المدينة تموت.

والعجوز كان يهز رأسه كأنه قد رأى ذلك كلّه من قبل. وكأن ما يحصل قد حصل دائماً. كأنه منام سيستيقظ منه بعد قليل، فيشرب من إبريق الفخار ويلف سيجارة ويدخن، فتهدأ النظرات في عينيه ويبدو كأنه يبتسم.

ودار العجوز حول الخيمة، ونظر إلى الحرج. كانت أغصان الملّول المتشابكة تبدو له كأنها ترتجف. وتابع دورته حول الخيمة فوجد نفسه أمام حقل القمح مرة أخرى.

تخيلهم يصعدون إلى العربة، رأى الأحصنة تصهل، وكان جوزف يضع المناجل عى أرض العربة قدّامه ويلتفت وينظر إلى القطار المتوقف في المحطة ويبدو سعيداً. أهو غير القطار الذي جاؤوا به؟

وكانوا الآن يعودون، والعربة الديلجانس تهتز عجلاتها فوق الطريق الوعرة، والأحصنة يزداد لهاثها، وخيّل إليه أن يسمع فرقعة سوط.

ونظر إلى السماء، وكانت زرقاء، وقال إنها زرقاء فوقهم أيضاً، وقال إنهم سيصلون قبل غياب الشمس. وهبّت نسائم باردة ورأى غيمة بعيدة، وكانت بيضاء، وأطرافها تتشح بلون ورديّ خفيف.

تلك الأسوارة الذهبية كم انتظرت كي تبرق الشمس فوقها مرة أخرى؟ بالأسوارة ضمن هذا الحقل. وقال سهيل بابازواغلي إنها حياة غريبة.

جلس على حجر أمام الخيمة ولفّ سيكارة أخرى وأشعلها.

هذا الصباح حلم أنه يمشي داخل غرفة معتمة ويشم رائحة لم يشمها من قبل. استيقظ مع وجع شديد في صدره ولم يقل للثلاثة شيئاً كي لا يفزعوا. ودلّهم على دكان الشيخ محمد الواقع خلف السبيل القديم، وأعطاهم غروشاً للطريق.

قالوا له: «نذهب في الغد».

أجابهم أن اليوم أفضل من الغد دائماً.

وقف وراء الخيمة، وراقبهم يختفون بين أشجار الملّول. ثم عاد إلى هنا وجلس وأخذ ينظر إلى سنابل القمح.

والآن بدت الطريق التي تتعرج وسط الحقل الأصفر كأنها تدعوه للنهوض. كانت الطريق حمراء ومغطاة بآثار الأقدام، وفكّر أنها ليست آثار «الثلاثة» فقط بل جميع أبناء البلدة الذين قدموا ليتفرجوا على الموسم خلال الأيام الماضية. وإمتلأ بإحساس قوي وقال لنفسه إنه قد عاش هذه اللحظات فيما مضى. وفكّر أن ذلك بات يتكرر كثيراً خلال الأسابيع الأخيرة: يخبره أحدهم شيئاً لا يعرفه، لكنه يحسب أنه قد سمعه من قبل، فينتابه ذلك الشرود، وحين ينتبه من شروده يرى حفيده جورجي يحدق إليه بنظرات قلقة. لقد كان هو من أعطاه هذا الاسم، وسمّاه جورجي تيمّناً بصديقه القديم جورجي أو جرجي زيدان. الآن لم يعد يعرف شيئاً عن ذلك الصديق، وفي آخر مرة سأل عنه في ساحة البرج أخبروه أن جرجي في مصر الآن، وأن أبو جرجي قد باع اللوكندة.

وقال سهيل بابازواغلي إنها حياة غريبة. فهذا الصباح، حين

أوجعه صدره، وبدا له أن جسده قد غدا ثقيلاً فجأة، فكّر أيضاً أنه يكرر صباحاً سابقاً.

وكانت السيجارة على آخرها، ووضعها على الحجر قربه، ولفّ أخرى بسرعة وأشعلها من جمرة السيجارة السابقة. في السجن تعلم أن يدخن، وهناك غدا أسرع من يلفّ سيجارة رفيعة ومضبوطة. يفرد الورقة على فخذه بأصابع اليد اليسرى فيما يضع التبغ فوقها مستخدماً أصابع اليد الأخرى، وفي رمشة عين يلفّ الورقة وهو يضغطها برفق، ويمرّرها من اليمين إلى اليسار على طرف لسانه، ويمسدها مرتين وهو يرفع رأسه قليلاً، ثم يشعل عود الكبريت.

ورفع رأسه أكثر، ورأى السماء زرقاء، ولونها فاتح كثوب حريري. وعاودته ذكرى المطاردة القديمة في أزقة بيروت المزدحمة بالناس والبضائع، وأحس تحت لسانه طعم الدم، وكان بمقدوره أن يسمع مرة أخرى صرخات الصائغ الأعرج. وأغمض سهيل بابازواغلي عينيه، وحين فتحهما مجدداً كانت السماء مغطاة بالغيوم السوداء. وقال إنها غربان، لكن الضجيج كان بلا بداية وبلا نهاية. وأحسّ بيدين ضخمتين تقبضان على رئتيه وتمزقان صدره من الداخل.

وكانت الغيوم تهبط فوق حقل القمح. ورأى آلاف الأعين الدقيقة، ووقف رامياً السيجارة، وركض نحو الطريق المتعرجة، وكان الجراد يملأ الفضاء، وفاحت الرائحة الغريبة التي شمّها في منام الصباح. وعندئذ فقط أدرك سهيل بابازواغلي أنها النهاية أخيراً.

الهواء لا يدخل إلى صدري. أركض إلى المطبخ، أدور حول الطاولة كأنني في قفص، أضع ركوة ماء على البوتوجاز، أجلس على كرسي، تزعجني أشعة الشمس القادمة من النافذة، أترك الكرسي وأجلس على أخرى.

إذاً، هذا هو الصباح.

حين أتحرك توجعني مفاصلي. أضع رأسي على الطاولة وأفكر بأن أقوم إلى الغرفة كي أجلب علبة الدخان، ولا أقوم لأن ظهري يؤلمني، ولأن صدري ثقيل، وأُغلق عينيّ.

كان العالم يقع وكنت أتساقط حوله كذرات غبار. ورأيت أنها كانت تمطر فوق الغابة. وكان الهواء يلسع وجهي واندفعت صوب العجوز، وكنت أحاول أن أمسك به. وكنت أهوي خارج العالم، وطعم الدم كان تحت لساني. سقط وسمعت زجاجاً يتكسر ولم ألحق به. وحين انحنيت فوقه وجدت الدماء تنزف من عينيه وتسيل بين الأعشاب الخضراء. وكانت ذراعه اليمنى ملتوية تحته، وقرب يده الأخرى كانت هناك قصبة نحيلة وطويلة. وكان التراب يبقّع قميصه الأبيض أما قدماه الحافيتان فكانتا مغروزتين في الحقل الأصفر. كأنه سنبلة مكسورة.

«الجراد مثل العالم، لا يخاف القصبة»، قلت للعجوز.

وسألني هو متى وصلت. وقلت له إن ذلك، مثل كل شيء، لا قيمة له، وكرّرت جملتي: «الجراد مثل العالم». وضحك وسألني كيف كان موته فقلت «الحمد لله دائماً، كان موتك كأنك قد مت». وانتبهت فسألته كيف كان موتي، فقال لي

أنه كان مثل الموت، وفكرت أنه صديقي الوحيد في العالم.

في العالم؟

وقلت بلى، وفكرت أنه صديقي الوحيد، وكنت أعلم أنه ليس صديقي، ثم فكرت أنه يمكن أن يكون صديقي. وأردت أن أسأله عن أبيه وهل بات مجنوناً في أواخر أيامه، يزرع أشجار الورد ويعتني بها ثم حين تفوح رائحتها يقصها ويحفر حول الجذع ويقتلعه من التراب ويبدأ بزرع شجيرة ورد أخرى. وأردت أن أسأله عن إبراهيم بخعازي وعن تلك الليالي الطويلة في سجن السرايا. وأردت أن أسأله عن صديقه جرجي. وأردت أن أسأله عن أمه ماري. وأردت...

لم أفعل. لم أسأل. لم أقل.

نزلت وكان وجهي مغروزاً في الوحل ولم أكن سنبلة. صرت قصبة وقلت لإبن يوسف أن يخبط الحشرات بي، وحين أراد ذلك وجدني ثقيلاً كالصخر في يده فسقطت ذراعه، وسقط، وسقطت تحته. والجراد كان فوقنا.

وكان مطرٌ غزيرٌ يشبه الوحول. وتراب أحمر يغطي أقدامنا الصغيرة البيضاء. أحراج ملتفة تعانقنا، وضباب يدنو من بعيد، وعشب أخضر بارد تحت أذاننا وعيوننا. والدم كان يخرج من داخلنا. ولونه كان يشبه السماء.

بات الحقل الأصفر رمادياً. والسماء المليئة بالبقع الزرقاء الداكنة أخذت تتلاشى وتختفي، ورأيت في مطرحها ماءً يشبه موج البحر، ولونه كان أسود، والتراب يتدفق منه.

وكان العجوز يهوي مرة أخرى عند حافة الحقل الأصفر،

والقصبة تبقى معلقة في الفضاء لحظة، وحين يرتطم جسد العجوز بالأرض تميل القصبة أيضاً وتلحق به.

أقوم على صوت المياه التي تغلي وأجلب علبة البنّ.

(القهوة)

كشطت أم جوزف عن جوانب العلبة التنكية بقايا البنّ، ثم وضعت الملعقة أرضاً ونظرت عبر البوابة المفتوحة. في الخارج كان جورجي ينحني فوق النار الصغيرة التي أشعلها في العيدان اليابسة وهو يمسك بالركوة النحاسية الصفراء. جوزف لم يكن هناك، وتساءلتْ أين مضى في هذا الوقت الباكر، ومسحت الملعقة بطرف التنورة الطويلة وخرجت من الكوخ وهي تمسك بالعلبة التنكية، وكان الهواء الساخن يهب من جهة الوادي.

أخذ جورجي العلبة ونظر إلى داخلها ثم تنهد وأفرغها فوق الركوة. كانت المياه تغلي وفارت القهوة وفاحت رائحتها. والأم شهقت، وجورجي أبعد الركوة عن النار بسرعة.

تركته واستدارت ومشت حتى شجرة التين. كانت الشجرة مغطاة بالبطانيات الصوفية، ووقفت هناك وتفرجت عليها، ثم نظرت إلى السماء. ورأت الشمس وكان نصفها ما يزال مخفياً وراء خط التلال البعيدة.

منذ أيام لا تنام إلاّ وتحلم أن العجوز يناديها. كأنها باتت مسكونة بصوته، ينادي عليها بصوته الرقيق والحزين ويخبرها أنه بخير هناك وأن زوجها أيضاً بخير. لم تكن تعرف عنه الكثير. والقصص التي كان يحكيها كانت تتبدل من ليلة إلى أخرى. هي

تحسب أنه يخترعها، والأولاد يتسلون، وهي لا تهتم. لا، لا تعرف عنه الكثير. لكنه كان يحبهم. وعاشوا معاً في كوخ بناه. ومن هذه الشجرة التي زرعها يوم جاء إلى هنا أكلوا تيناً حلواً كالعسل.

وكان جورجي ينادي عليها الآن، واستدارت ورأت جوزف قربه، وخلفهما سليم، وكان البخار يتصاعد من الركوة، والنار ما تزال مشتعلة.

(البحر)

قال جوزف: «سنسافر في صباح الغد، الجراد لم يترك لنا شيئاً». كانت الشمس تغيب، وكانوا ينزلون البطانيات الكثيرة عن أغصان التينة، وإلتفتت الأم صوبه، وكان اللون قد ذهب من وجهها، ورأى جورجي أنها كانت ترتجف.

قال جوزف: لقد أعددنا كل شيء.

مضت وجلست على المقعد الحجري الطويل وأسندت ظهرها إلى جدار الكوخ. كانت البطانيات مكومة على الأرض حول جذع الشجرة الضخمة، ورفعت رأسها قليلاً وتأملت الأوراق الخضراء اللامعة.

قال سليم: هذه آخر شجرة خضراء في الجبل.

مشى جورجي نحو الكوخ تاركاً جوزف وسليم خلفه. أغمضت الأم عينيها، كانت تعرف أن جورجي سيجلس قربها ويبقى صامتاً.

فيما بعد سمعت جوزف يقول شيئاً عن البحر. وأصغت جيداً، لكن الهواء حمل الكلمات بعيداً.

(ثلاثة معاطف خضراء)

تأجل مشروع السفر حتى منتصف الخريف. وقبل أن ينتهي الصيف، وبعد أيام قليلة على رحيل الجراد، هبّت رياح الخماسين فقضت على كل خضرة متبقية، وأيبست شجرة التين تماماً.

ذات صباح خريفي بارد وجد «الثلاثة» أنفسهم يتجولون في الأسواق التي طالما كانت مسرحاً لحكايات الجد العجوز.

قال جورجي: هل تشمون الرائحة؟

قال جوزف: صحيح. هناك رائحة قوية.

قال جدي: أنا أيضاً أشمها.

كانت الحركة خفيفة في الشوارع، وشاهدوا آثار الدمار التي خلّفها قصف البوارج للمدينة. وكان حطام السفينة التركية «عون الله» قبالة الشاطىء.

قال جدي سليم: إتبعوني.

دخل جوزف وجورجي وراء جدي إلى «محلات بارودي للألبسة». إبتاع جدي من الداخل ثلاثة معاطف خضراء. كانت هذه المعاطف بمثابة هدية وداع. في الخارج تفرجوا على أنفسهم في زجاج الترام، وكانوا ثلاثة ظلال خضراء، وحين تحرك الترام إختفت الظلال، فاستداروا وتابعوا السير.

مضوا عبر الأزقة بإتجاه سوق الجوهرجية. كان هناك بعض الناس، وكانوا يتحركون مسرعين كأنهم ذاهبون إلى احتفال ما. ووجد الثلاثة أنفسهم عند مدخل السوق المنشودة، ولم يعثروا

على دكان الصائغ الأعرج. وكان هناك بائع سوس يقف عند الزاوية القريبة، وأخبرهم أن الدكان ذاك تمّ هدمه مع المخازن القريبة منه قبل سنتين، وأن عمليات الهدم قد جرت بحضور الوالي، وكان الهدف منها توسيع الشوارع، ثم جرى ما جرى.

الوجه الشاحب لبائع السوس ذكّرهم بالحوذي المريض وبغاله الثلاثة. ذلك الحوذي كان قد نزل معهم فجراً بالقطار من محطة عاليه، وعند المنعطفات كانت بغاله تفقد توازنها وتخبط جدران المقطورة فترتسم على وجهه ملامح الذعر ويقفز بين بغاله مثل جندب محروق.

حين وصلوا إلى المدينة، وبعد أن ترجلوا من القطار، تفرجوا على الحوذيّ وهو يسعل ويضع الماء أمام بغاله. بعد ذلك وقفوا قبالة السرايا طويلاً. وعندما تباعدت الغيوم قليلاً، وبان قرص الشمس، انعكست الأشعة القوية على زجاج النوافذ الثلاث الطويلة التي تعلو شرفة الطابق الثالث.

وتقدم جورجي ولمس جدار السرايا، وتبعه جوزف وحاول أن ينظر عبر الأباجور الخشبي المغلق، ثم تراجع خائباً. وإلتفت جدي وواجه المقابر الثلاث المتلاصقة ثم سار نحوها. ووقف أمام الصخرة الكبيرة وقرأ الأسماء المنحوتة عليها: مقبرة الغرباء، مقبرة المصلى، مقبرة الخارجة.

ونظر الجنود بإتجاه الأخوين بابازواغلي فإبتعدا عن حائط الطابق السفلي حيث السجن، ولحقا بجدي سليم ووقفا قربه. وكانت الغيوم قد غطّت الشمس مجدداً، والهواء البحري البارد يهبّ من الغرب.

قال جدي إنه سيشتاق لهما.

ألقى جورجي سؤاله: تُرى، في أية من هذه المقابر يقع قبر إبراهيم بخعازي؟

كان جوزف شارداً، ونظراته معلقة بالهضبة البعيدة.

عند الظهيرة أكلوا فولاً مدمّساً، مع خبز أسمر وبصل أبيض. وطلب جوزف «خمسينية» عرق باردة وشربوها معاً، وكانت اللوكندة شبه فارغة.

قال جدي: ربما التقيتما بجرجي هناك.

قال جوزف: هذا إذا كان ما يزال حيًّا.

قال جدي: يجب أن يكون في الستين من عمره الآن.

قال جوزف: بل أقل.

قال جدي: لكن أفريقيا كبيرة جداً.

غادروا اللوكندة. كان عليهم أن يقوموا بجولة أخرى في الأسواق. مشوا بإتجاه كنيسة الموارنة القديمة. كانت هذه أول مرة ينزلون فيها إلى بيروت، ورغم ذلك تحركوا عبر الأزقة كأنهم قضوا طفولتهم هنا. ومع كل منعطف تذكروا قصة من قصص الجد.

المحلات أكثرها مقفل. الطرقات مغطاة بالقاذورات. بعد كنيسة الموارنة ظهرت آثار القصف واضحة. وخلف مجموعة من عربات الخضار المحطمة والمحروقة عثروا على السور الحجري الصغير، وكان مهدماً في مواضع قليلة منه.

إنحنى جورجي فوق السور، أخذ يتفحص الأرض.

جدي سأله هل أضاع شيئاً.

جوزف أجاب عوضاً عن أخيه: إنه يبحث عن كعكة جدّنا سهيل. لقد رماها هنا.

استقام جورجي، وقال إن العصافير أكلت الكعكة.

ضحكوا، وكان البرد يقوى، وزرّروا معاطفهم الجديدة. مرقوا بين أشجار الليمون اليابسة ثم خرجوا إلى الباحة المربعة. كان الهواء راكداً هنا، ونظروا إلى العواميد الضخمة لمدخل كنيسة مار جرجس وإلى الأبواب السوداء الموصدة للكنيسة المسكوبية، وسمعوا قرع أجراس بعيدة. وابتعد جدي عنهما قليلاً ودار متأملاً جوانب الباحة ورفع رأسه ونظر إلى البرج الحجري العالي وإنتبه إلى الجرس الضخم الثابت كصخرة، وكان مشهد الفتيات الخارجات من معمل بورتاليس يتكرر داخل رأسه.

عند أول المساء كانوا يقفون على الشاطئ. وحين تعبر دورية من الجنود على الطريق فوقهم يختفون خلف الصخور فتبدو معاطفهم الخضراء إمتداداً طبيعياً لنبات الخزّ وللطحالب الكثيرة.

تأخر الزورق أكثر من ساعتين عن الموعد المحدد. كان فيه بحّار إنكليزي وآخر لبناني. وخلف هذين الإثنين وقف بولس رزق الله صاحب الخان في عاليه والرجل الذي دبّر لهما وسيلة السفر.

تقدم جدي من جورجي وعانقه ثم إلتفت صوب جوزف. خفض جوزف عينيه ثم رفع رأسه مبتسماً. وقال لجدي: «فقط إنتبه لأمنا، ولنفسك».

ـ فقط؟ سأله جدي.

وكان جوزف يصعد إلى القارب وسمعه جدي يقول: «فقط» ونادى البحّار اللبناني على الأخوين كي يسرعا ورأى جدي البحّار الإنكليزي الأشقر وهو يعدّ الليرات الذهبية، ثم تلاشى ضوء القمر، وغرق الشاطىء في العتمة.

وسمع جورجي، يقول: «فقط لو تذهب معنا!».

وحاول جدي أن يرى عيني جوزف، وكان يفتش عنهما محدقاً، وصوت الموج يهدر في أذنيه. وكان البحر يتراجع، ثم تحرك القارب، وأخذوا يغيبون في الظلام.

(كي... في الظلام)

ما زلت أتذكر تلك الليلة كأنها لم تكن قبل سنوات، وكأنها كانت بالأمس فقط.

وقفت هناك كالتمثال ونظرت إليها. كانت ترتدي معطفاً رمادي اللون، وكانت تمشي بخطى سريعة على الرصيف المبلّل قدّام دكان أبو ناجي. على الفور عرفت أنها ليست طالبة هنا، وعرفت أيضاً أنها وحيدة تماماً، ولم أعرف أبداً كيف عرفت ذلك كلّه.

لكنني عرفت.

وكان الهواء يتسلق درج «الكولدج هول» الذي تركته خلفي، ثم يخرج عبر بوابة الجامعة التي خرجت منها قبل ثوانٍ فقط، ويضربني على ظهري ورأسي. وكان بارداً ومحملاً بالملح. إنطلقت قاطعاً شارع بلس، وكانت هي تمضي بإتجاه الأفران

ومحل العصير، ولحقت بها. أضواء النيون تضيء الرصيف والجو يبرق، وجلبة السيارات العابرة في الإتجاه المعاكس لنا تتلاشى، كأن الرصيف مفصول عن الشارع بجدار زجاجي سميك. لم أعد أبصر إلاً المعطف الرمادي الطويل، والقامة النحيلة، والشعر والأسود المربوط.

تجاوزتُ سينما أورلي وانعطفتُ إلى اليمين وصعدتُ في طلعة عبد العزيز. كانت الشجرة الكبيرة القائمة عند المنعطف تُغرق المكان في عتمة مطبقة، فأسرعتُ، وكان بمقدوري أن أسمع نبضي في رأسي، ووجدت أنها قد إختفت في الظلام. ركضت متسلقاً الطلعة ووقفت عند مدخل شارع المكحول وإحترت في أي إتجاه مضت. هل مضت صعداً حتى شارع الحمرا؟ هل ذهبت إلى اليسار بإتجاه مستشفى الجامعة الأميركية؟ أم دخلت من هنا، عن يميني، في هذا الشارع؟

وعرفت أنها مضت من هنا، وإنعطفتُ يميناً وركضت مخترقاً شارع المكحول. وكانت الطريق صاعدة ومعتمة، ثم إستوت وأضاءها نورٌ قادمٌ من نوافذ البيوت القريبة، وكنت قد تجاوزت بوابة المدرسة الأرثوذكسية ووجدت نفسي أمام تفرع آخر للطريق.

وكانت هناك رائحة معلقة في الجو، وكنت أعرف أنها رائحتها.

هل ذهبت يساراً عبر الزقاق المتلوي الذي طالما حسبتُ أنه يشبه زقاقاً في بلدة جدتي؟ أم تابعت في خط مستقيم ووصلت إلى «عصير الزاوية» وخرجت من هذا الزقاق إلى طلعة جاندارك؟

وقفت في مكاني حائراً، وأحسست بقدمي تتصلبان. سوف أقف هنا، سوف أكون تمثالاً عند هذا التفرع لطريق المكحول، ولن أتحرك من هنا حتى تعود إليّ. قلت. وكان نور النوافذ يسقط على الإسفلت المبلّل خلفي، وأغمضت عينيّ، وتخيلتني أقف في الظلمة مرة أخرى وكنت أفكر في أي إتجاه أذهب، وكانت قد اختفت لتوها، ولم أكن قد حزمت أمري بعد ودخلت في هذا الشارع الضيق الذي يصل شارع عمر بن عبد العزيز بشارع جاندارك. وجاءت ريح قوية، وارتجفت.

هل حقاً سأبقى كعمود المنارة هنا حتى تعود إليّ؟

(تعب)

لم أعد أحتمل الضجة القادمة عبر هذه الجدران المصنوعة من الخشب والكرتون. لماذا لا أصعد إلى الجبل؟ هناك سأتابع الكتابة بهدوء. بهدوء؟

أقوم وأترك الطاولة وأفتح باب الشرفة وأخرج وأنظر إلى السماء وإلى النجوم وأفكر بـ «س.».

تُرى أين هي الآن؟

تُرى ماذا تفعل الآن؟

(حكاية الأخ الصغير)

كنت أجلس مع جدتي على المصطبة، وكان المساء دافئاً، وكانت خالتي الصغرى في الداخل تعد لنا طعام العشاء. هكذا أتذكر أيام المدرسة دائماً. وأهلي كانوا في إفريقيا.

يا لها من طريقة بائسة لوصف الأشياء!

وكانت جدتي تحكي وتحكي كي لا أكون حزيناً وكي لا أشعر بالضجر وكي لا . . .

وحكت جدتي لي عن أخيها الصغير أنطون.

قالت إنهم أسموه أنطون على اسم جدّها الذي مات في بيروت مقتولاً. وقالت إن أنطون وُلد مريضاً، وأنها كانت في السابعة أو السادسة من عمرها آنذاك. والداية قالت لوالد جدتي إن الطفل المولود لن يعيش طويلاً. وقالت إن الأعمار بيد الله.

وأنطون عاش شهراً واحداً وبضعة أيام. لكن حياته القصيرة قررت ما ستكون عليه حياة أخته الوحيدة ـ جدتي إبنة الست سنوات ـ كما ستكتشف هي بعد زمن طويل.

كان أنطون يشبه كيساً جلدياً شفافاً مليئاً بالعظام الرفيعة التي تشبه عظام الطيور. الأب كان يخشى أن يحمله بين يديه الكبيرتين، والأم كانت تتركه ملفوفاً ببطانية وضعت بينها وبين جسد الطفل فوطة من الحرير. والأخت، جدتي، كانت تلازمه كل ساعات النهار، وفي الليل كانت ترفض أن تنام في غير الزاوية التي ينام هو فيها.

ولم يكن كثير البكاء، وكان الوبر على رأسه يشبه الريش، وكانت عيناه زرقاوين تلك الزرقة الهادئة والرقيقة، وكان وجهه ناعم الملامح، وأصابع يديه دقيقة ووردية اللون.

بيت عائلة عبود كان في ذلك الزمان يتكون من غرفتين فقط ومن حمام بُني في الخلف، إلى جوار شجرة خوخ يابسة وسوداء. وفي أيام الشتاء كان الخروج من البيت إلى الحمام يعني المخاطرة بالإصابة بنزلة برد. وكان الأب والأم ينامان مع طفلهما

وإبنتهما في غرفة واحدة. أما الغرفة الثانية فكانت توضع فيها المؤنة شتاءً، وتخصص لتربية دود القزّ في أيام الربيع. وولادة أنطون كانت في يوم من تلك الأيام.

قالت جدتي إن أنطون وُلد بعد يومٍ أو يومين من تركيب «السقايل» في الغرفة الداخلية، و «السِّقالة» تشبه خزانة بلا جوانب، وهي عبارة عن أربعة ركائز خشبية، تصل بين أرض البيت وسقفه، وتشكل الزوايا الأربع التي ستحمل رفوفاً مصنوعة من القصب أو عيدان الصفصاف أو زبل البقر المجبول بالتبن الناعم، ففوق هذه الأطباق تربى ديدان القزّ.

هذه الغرفة كانوا يسمونها بيت القزّ. وكانت تحتوي على ثلاث «سقايل» تغطي ثلاثة جدران. أما الجدار الرابع فكان يتوسطه باب يؤدي إلى الغرفة الرئيسية ويواجه باب البيت الكبير.

وقالت جدتي إن هذا التصميم كان يتيح لأهلها أن يهتموا بالديدان بسهولة، إذ هم دائماً على بُعد خطوة واحدة منها. لكن كانت هناك تلك السنوات الخطرة حين تأتي موجات الحرّ في وقت مبكر من السنة فتتهدد الديدان بالموت لأن بيت القزّ كان خالياً من النوافذ، وفي هذه الحالة كانوا يتركون البابين مفتوحين ويشرعون نافذة الغرفة الرئيسية، ويرشون الماء على الأرض، ويصلّون أن يهبّ الهواء العليل من الوادي.

وسنة أنطون كانت واحدة من تلك السنوات. فبعد أسبوع واحد من ولادة أنطون، وكان نيسان قد إنتصف، سكن الهواء وتلاشت الغيوم القليلة، وحدثت «شلهوبة» مريعة، فإرتفعت درجة الحرارة إلى تسعٍ وعشرين درجة في الظل، وذبلت ديدان

القزّ ولم تعد قادرة على إلتهام ورق التوت، وخلال ساعات قليلة باتت عاجزة عن الحركة.

هكذا أصابت القرية الكارثة إذ مات ما يزيد عن نصف الديدان، ومُني موسم الحرير بخسائر هائلة في لبنان كلّه. وهذه الكارثة ستبقى في الذاكرة حتى تحلّ كارثة الجراد بعد عشر سنوات تقريباً، فتمحو كل الكوارث التي جاءت قبلها، وترمي بها إلى النسيان.

لكن شيئاً في العالم لم يكن قادراً على محو صورة أنطون من ذاكرة جدتي بعد أيام الحرّ الرهيبة تلك. كانت ترى وجهه يذبل كما الديدان المكتظة عند حواف الأطباق ـ حيث الحرارة تكون أدنى بنصف درجة أو أقل. وراقبت الصفرة تكسو أصابعه ثم يديه رويداً رويداً. وكان العرق ينزّ من جلده لزجاً وكثيفاً كالقيح. والأم لا تخرجه من البطانية لأن الداية أخبرتها أن أقل نسمة هواء قد تقضي عليه. والأب مشغول عن كل شيء بالدود الذي كان يموت، وبرشّ المياه على أرض البيت الطينية، وبتوزيع أغصان الوزال فوق السقف الترابي بغية إمتصاص حرارة الشمس. لكن الديدان التي خرجت من البيوض قبل أقل من أسبوعين، والتي يفترض بها أن تخرج من صيامها الأول عن الطعام كي تعود إلى إلتهام المزيد من الورق الأخضر المفروم، كانت الآن تذوب من الحرارة وتمتنع عن تحريك فمها. وقرّر والد جدتي أن يهدّ جدار الغرفة المواجه للبابين، وأن يخص «سقالة» قزّ واحدة من «السقالات» الثلاث بدل أن يرمي بها كلّها إلى النار. وكان أن نفَّذ ذلك على نحوٍ بارعٍ إذ قام بتصنيف أطباق القزّ المصفوفة على «السقالتين» المتقابلتَين فرمى ما كان منها

شديد الذبول بحيث أفسح مكاناً للأطباق القليلة الجيدة التي كانت تضمها «السقالة» الثالثة. وأنقذ بالتالي جزءاً من موسمه.

لكن عملية الإنقاذ هذه، والتي كان الهدف منها خلق تيار من الهواء المنعش داخل بيت القزّ، سرعان ما تحولت خلال يومين إلى مصدر كارثة جديدة، إذ تبدّل إتجاه الهواء فتحوّل إلى رياح شرقية محملة بالغبار والرمال فزاد من حرارة الجوّ حول أطباق الدود، وقضى على القسم الأكبر منها.

عندئذ اقترحت والدة جدتي نقل الأطباق السليمة المتبقية إلى زاوية الغرفة الرئيسية، فوافقها والد جدتي على الفور، وقاما بنقلها معاً، وخرجت جدتي، وجلبت حملاً من ورق التوت الطازج، وكان أنطون غارقاً في النوم.

وأخيراً تراجعت «الشلهوبة». وخرج الهواء الربيعي من الوادي. وكانت رائحة الدود الميت الذي تمّ إحراقه تغطي الفضاء فوق القرية والتلال القريبة.

قالت والدة جدتي إن البعض لم يبقَ عنده طبقٌ واحدٌ.

قال والد جدتي: غداً تتضاعف الأسعار. لا تخافي.

وجدتي كانت تنظر إلى وجه أنطون الأصفر، وتحدق في زرقة عينيه، ولا تفهم لماذا يبقى صامتاً ولماذا لا يبكي كما يفعل جميع أطفال الجيران.

وإنتهى القزّ من صيامه الثالث، وخرج من الصيام مستعيداً نشاطه، وساعدت جدتي والدها على تحميل أغصان التوت الطرية من الجلّ البعيد إلى البيت، وراقبته وهو يطوي الأغصان ويلقيها في الأطباق. وحين سألته لماذا لا يضع الأوراق فقط،

أخبرها أن الدود أصبح الآن كبيراً ولم يعد يشبع بسهولة.

وفي مساء ذلك اليوم أجلسها في حضنه وأخذ يخبرها تلك الأشياء التي ستروريها لي بعد عشرات السنين. قال والد جدتي: «بعد سبعة أيام سيبدأ القزّ صيامه الرابع. وهذه حكمة ربّنا. هذا القزّ الذي هو رزقنا كلّه، حياته غريبة جداً يا إبنتي. وكثيراً ما أفكر بها، وحتى الآن لا أقدر أن أقول إني أفهمها. يخرج من البزر فنضعه فوق هذه الأطباق ونفرم له أوراق التوت. يأكل منها سبعة أيام ثم يصوم اليوم الثامن. يتوقف عن الأكل وينام ثم يقوم في اليوم التاسع. نضع له الورق المفروم خشناً هذه المرة، وكما في الأيام الأولى تعود شهيته لمدة سبعة أيام أخرى. ثم يصوم يوماً آخر. وبعد هذا نرمي له الأوراق كما هي فيلتهمها بسهولة، أيضاً طوال سبعة أيام. ثم يأتي صيامه الثالث. والآن ترينه يأكل العيدان أيضاً».

قالت جدتي: «لأنه لم يعد صغيراً مثل أنطون».

إبتسم والد جدتي: «صحيح. فالدودة حين تكون صغيرة يكون لونها أسمر، والوبر يغطي جسمها، لكن لونها يتبدل بعد أيام قليلة إلى أزرق، ثم إلى أبيض كما هي الآن، وغدا في الصباح سترين كيف يصبح لونها أصفر».

قالت جدتي: «أصفر مثل أنطون».

قال والد جدتي: «صحيح».

قالت جدتي: «وذلك النهار رأيت وجه أنطون يصبح أزرق. حين هدمت حائط الغرفة».

قال والد جدتي: «صحيح».

قالت جدتي: «لكني لم أره أبداً أبيض. فقط أصفر».

قال والد جدتي: «لأنكِ كنتِ نائمة حين كان أبيض».

مضت دقائق قليلة، قالت جدتي: «وبعد ذلك، بعد أن يصبح لون الدود أصفر ماذا سيحصل له؟».

قال والد جدتي: «بعد ذلك يبدأ صِيامه الرابع والأخير فنضع له أغصان الوزال قرب الأطباق ونتركه يتسلقها».

قالت جدتي: «وبعد ذلك؟».

قال والد جدتي: «تصنع كل دودة شرنقة من خيوط الحرير حول نفسها وتنام في داخلها. وفي الآخر نقطف هذه الشرانق ونأخذها إلى الكرخانة ونبيعها».

قالت جدتي: «والدودة ماذا يحصل لها؟».

قال والد جدتي: «تتحوّل إلى فراشة وتطير إلى السماء».

قالت جدتي: «لكن كيف؟ كيف تخرج من الشرنقة؟».

قال والد جدتي إنه سيخبرها فيما بعد. وفي صباح اليوم التالي استيقظت جدتي على بكاء أمّها، وكان أنطون ملفوفاً في شرشف من الحرير الأبيض، وممدّداً في صندوق خشبي.

أرادت جدتي أن ترى وجه أنطون الأصفر فحملها والدها ومشى بها حتى جلول التوت. هناك أجلسها على ركبته، ثم أخذ ينظر إلى التلال المقابلة. وكان الوادي صامتاً تحتهما.

قال والد جدتي: «لا تأكلي أظافرك هكذا».

قالت جدتي: «لكن كيف سيخرج أنطون من الشرنقة؟».

قال والد جدتي: «لقد خرج منها وأنتِ نائمة. إنه في السماء الآن. إنه فراشة».

ـ لكن أين هو؟ قالت جدتي.

كان والدها ينظر بعيداً.

ـ وماذا يفعل الآن؟

كرّرت سؤالها، وكانت تنظر إلى أبيها، ورأت ماءً في عينيه.

(أنطون يعود)

ثم ذات يوم، وكان الأب قد مات، والأم أصيبت بمرضٍ أقعدها، وهي قد أصبحت عاملة في معمل بورتاليس لحل الحرير وغزله، وجدت جدتي نفسها فجأة أمام الوجه الأصفر لأخيها أنطون مرة أخرى.

والصدمة جعلتها تشهق.

(والآن... شاي)

أتوقف عن الكتابة. أدخل إلى المطبخ. أضع إبريق الشاي على البوتوغاز. أحشو الغليون تبغاً وأولعه. أضيء لمبة الحمام. أغسل يديّ من الحبر الذي لطّخ رؤوس أصابعي. أنظر إلى المرآة. أعود إلى غرفتي. أجلس إلى الطاولة. ظل رأسي يغطي الأوراق. يجب أن أشتري لمبة مكتب.

أتصفح الأوراق. اكتشف أنني أكتب بسرعة. هذا أمر سيء. لقد بدأت عند العصر، والآن تجاوز الوقت منتصف الليل. كيف مضى الوقت؟ كم صفحة كتبت في هذه الليلة؟

البارحة توقفت عند السطر الثاني من حكاية الأخ الصغير. هناك إشارة بالحبر الأحمر فوق كلمة «العشاء». إذاً، الجملة

الأولى التي كتبتها اليوم كانت: «هكذا أتذكر تلك السنوات دائماً».

أدخل إلى المطبخ. أراقب فقاقيع المياه الصاعدة من قعر الإبريق. أفتح علبة الشاي. أملأ منها مقدار ملعقة كبيرة. تدخل رائحة الشاي في أنفي. أراقب البخار يتلوّن بضوء اللمبة الصفراء. أفكر أني وصفت هذا المشهد في رواية سابقة.

أتساءل متى بدأت بكتابة هذه الرواية. أتذكر: في ذلك اليوم نزلت صباحاً كي أركض على كورنيش المنارة. ثم، بعد أن ركضت لدقائق قليلة، وجدتني أجلس على واحد من تلك المقاعد الحجرية الطويلة، وأتأمل البحر. كانت هناك سفينة بعيدة. ودون أن أنتبه ذهبت أفكاري إلى «س.». حاولت أن أحسب فارق الوقت بين بيروت ولندن. لا بد وأنهما قد استيقظا من النوم وجلسا لتناول طعام الفطور. لا، على أغلب الظن، هما الآن في الشركة. لكن ربما أخذا إجازة في هذا اليوم. أليست الشركة ملكاً لعائلته؟ حسناً، إنه يريد إجازة. و «س» أيضاً. إذاً، هما ما يزالان في السرير.

إزدحم الكورنيش. إرتفع ضجيج السيارات العابرة خلفي. إلى أين يركضون؟ أعمالهم، جامعاتهم، حياتهم... أخذت أمشي. وصلت حتى المنعطف حيث فندق الريفييرا. وقفت هناك وتأملت الصخور تحتي ثم تجاوزت الحاجز الحديدي ونزلت إلى الشاطى. جلست على إحدى الصخور وكانت السفينة قد اختفت تقريباً.

عصراً عدت إلى البيت. كان الطقس يتبدل. لا بد وأن

الأمواج تغطي الصخور الآن. طعم رذاذها المالح يستقر على شفتي.

تمددت على السرير وحاولت أن أفكر بأشياء أخرى. فكرت بجدتي وفكرت بأيام المدرسة وفكرت بأول قصة كتبتها. لكن أفكاري عادت إلى «س.». تُرى، ماذا تفعل الآن؟

كان الضوء يتلاشى. أردت أن أترك السرير وأشعل اللمبة. لم أفعل. وأغمضت عينيّ وكنت أسمع صوت قطرات مطر قليلة تتساقط فوق الشرفة.

طوال الشهر الفائت لم تمطر ولو لمرة واحدة. لكنها أمطرت في الأيام الأخيرة في آذار. هذا يعني أن ذلك اليوم كان قبل شهر وخمسة أيام تقريباً. فنحن الآن في الرابع من أيار.

أتذكر، وكوب الشاي أمامي، وضوء اللمبة ينعكس على جوانبه:

تمددت على سريري واستمعت إلى المطر يتساقط على الشرفة، وكان الوقت عصراً، وأخذني النوم. وفي المنام رأيت أن «س.» لم تتركني، وأنها ما تزال معي، وأنها لا تحب شخصاً غيري. ثم بدأ الكابوس. كنت أراها من الخلف وكانت تقف أمام بوتوغاز كبير جداً في مطبخ لم أدخل إليه من قبل، وكانت تصنع القهوة. إنها القهوة التي أحبها. وهذه هي ركوتي المفضلة. ركوة نحاسية تتسع لمقدار خمسة فناجين. أتركها تغلي ثم أضيف أربع ملاعق صغيرة من البنّ. ملاعق طافحة تماماً. وأطفىء النار قبل أن تتبدّد الرغوة عن وجه القهوة. أشرب فنجانين وتشرب فنجاناً واحداً. قبل أن أعرفها كانت تكره القهوة. الآن لا. لكننا نشرب

قهوتنا مرّةً فلماذا تفتح علبة السكر ولماذا تضع الملعقة فيها ولماذا. . .

إستيقظت وكنت مبللاً بالعرق، وسمعت نبضاً يقرع في أذنيّ ورأسي. المطر كان قد توقف عن الهطول. في العتمة أشعلت سيكارة. كنت ما أزال أنتعل حذائي. لم أُعد القداحة إلى جيب بنطلوني. رميتها على سطح الكومودينة القريبة، وتركت السرير، وأضأت اللمبة.

في الحمام غسلت رأسي ووجهي ثم وضعت منشفة حول أذنيّ وخرجت إلى الشرفة. كانت النجوم تملأ السماء، والمدينة صامتة. أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيّ. كأنني أتنشق رائحة العالم، كأنني أتنشق العالم. كأنني ثقب أسود في الفضاء: كنت أجذب كل شيء إلى داخلي، وأتركه تحت جلدي، وأحوّله إلى جزء مني.

لا. كان كل شيء يدخل إليّ ويستقر تحت جلدي ويتحول إلى جزء مني.

لكن، ماذا عن الأشياء التي كانت تغادرني؟ وماذا عن الأشياء التي يطالبني العالم بأن أدعها تمضي؟

فتحت عينيّ ونظرت إلى النجوم مرة أخرى. المجرة كانت بيضاء وصافية. من غيري يتأملها الآن؟

رجعت إلى الغرفة ووضعت أوراقاً على الطاولة.

سأكتب رواية، قلت.

وقلت إنني سأبدأها بجنازة جدتي.

ـ 2 ـ

هناك أولاً جدتي. وهذه الرواية روايتها. وهي جدتي لأمي. ولقد ماتت قبل خمس سنوات. أما سنة ميلادها فلا أعرفها بالضبط، لأنها هي أيضاً لم تكن تعرفها. لكنها على أغلب الظن سنة 1901 أو 1902.

قبل زواجها كانت تدعى زهية ميشال عبود. وبعد الزواج بات اسمها زهية حداد. حين مات جدّي تحوّل إسمها فوراً إلى أرملة سليم حداد. وهذا الإسم الأخير كان جزءاً من شماتة البلدة بها. أما بالنسبة إليّ فهي كانت دائماً «جدتي، زهية».

جدتي زهية راوية الحكايات. وجدتي زهية التي كانت تحسب أن الناس هم دود قزّ، وأن معظمهم ينتهون ديدان ميتة وسوداء، وأن قلّة منهم فقط تتحول إلى فراشات صفراء.

جدتي زهية الفراشة. وجدتي زهية التي استنتجت كل تلك الأشياء أيام كانت تعمل مساعدة لبروسبر فرتوني إتيان بورتاليس في مختبره الشهير.

(تاريخ كرخانة في جبل لبنان)

كان إتيان بورتاليس وزيراً للعدلية في فرنسا في عهد نابليون بونابرت. وبعد سقوط نابليون أصيب إتيان بالمرض ثم مات. وكان له خمسة أولاد. الأول إتيان باسم أبيه والثاني نقولا والثالث فرتوني والرابع روبر والخامس يوسف. وبعد موت الوالد إتيان سيهاجر الخمسة إلى مصر ثم إلى سوريا.

في عام 1840 قرّر نقولا بورتاليس إنشاء كرخانة لحلّ الحرير في جبل لبنان. آنذاك كان مربو الدود في بلادنا يحلّون الشرانق ويغزلون خيط الحرير في بيوتهم بطريقة بدائية. وبعد أن خطّط نقولا لمشروعه جيداً، قصد الأمير بشير الشهابي في قصره في بيت الدين، وطلب منه أن يبيعه أرضاً صالحة للبناء. فرفض الأمير ذلك.

عندئذ أرسل الشيخ يوسف بك عبد الملك، عدو الأمير بشير وكبير رجال الإقطاع في الجرد، رسولاً إلى نقولا بورتاليس يطلبه إليه. وفي غضون يومين كان نقولا قد إبتاع من الشيخ يوسف بك قطعة أرض في بتاتر بإثني عشر ألف غرش. وقبل نهاية أيلول عام 1841 انتهى العمال من إنشاء المبنى، لكن انفجار الحرب الأولى بين الدروز والموارنة أخّر وصول المعدات اللازمة لإكمال المصنع.

وبعد ذلك بأربع سنوات، خلال الحرب الثانية بين الدروز والموارنة، غادر جميع الأجانب جبل لبنان بأمر مباشر من الحاكم شكيب أفندي. إلاّ نقولا بورتاليس الذي رفض أن يترك مصنعه وبيته وظلّ في بتاتر.

أما فرتوني بورتاليس فجاء إلى بتاتر في سنة 1847 واشترى المصنع من أخيه نقولا، لأن نقولا كان قد قرّر العودة إلى مصر. وفي هذه السنة نفسها استحضر فرتوني من جنوبي فرنسا أربعين غازلة لتعليم بنات لبنان فن الغزل.

بين عام 1847 و1850 تأسست في جبل لبنان أربعة معامل أخرى لحل الحرير. وخلال تلك السنوات الثلاث عمد فرتوني بورتاليس إلى شراء المزيد من بساتين التوت.

عام 1860 حصلت الحرب الثالثة بين الدروز والموارنة. وعقب هذه الحرب دخل الجيش الفرنساوي إلى لبنان تحت قيادة الجنرال بوفور، فأقامت إحدى فرقه في بتاتر، ووُضعت تحت إمرة فرتوني بورتاليس نفسه. واستغل فرتوني هذا المركز فضاعف ثرواته. كما أضاف مخزناً للمصنع، وشقّ طريقاً إليه.

وكما نتج عن الحرب الأولى عمليات نفي لمقاتلين وزعماء، فإن الأمر تكرر عقب الحرب الثالثة. بعد الحرب الأولى نفي الأمير بشير الشهابي إلى مالطة. وبعد الحرب الثالثة نفي مئات الدروز إلى طرابلس الغرب وإلى بلغراد، وبين هؤلاء كان الشيخ يوسف بك عبد الملك، حاكم مقاطعة الجرد.

هكذا غادر جبل لبنان جميع الذين شاركوا في ولادة كرخانة بورتاليس: الأمير بشير الذي حاربها، والشيخ يوسف الذي رعّاها، والمسيو نقولا الذي أنشأها.

وبعد موت فرتوني بورتاليس خلال تلجة شباط 1882، ورث إبنه الوحيد بروسبر المصنع. فقام بتحويل المخزن الخلفي إلى مختبر لإنتاج أنواع جديدة من بيوض القزّ. وبعد ثلاثين سنة،

خلال عامي 1913 و1914، ستكتشف جدتي الحياة الحقيقية لدود الحرير، بينما تتجول في أرجاء هذا المختبر.

وفي تلك الأيام كان بروسبر قد دخل العقد السادس من عمره، وبات مشهوراً في البلاد بصفته الفرنساوي الغريب الأطوار المسيو بروسبر بورتاليس الذي نام مع فراشة حرير.

(حكاية دخول جدتي في معمل بورتاليس)

كان ذلك بعد أربع أو خمس سنوات من موت أنطون. أُصيب الأب بمرض في بطنه ولم يعد قادراً على النوم. كانت جدتي زهية تستيقظ في العتمة على أنينه، كي تجده متكوماً حول نفسه مثل قنفذ كبير، وهو يتلوى من الوجع، في تلك الزاوية ذاتها حيث مات أنطون، وحيث وضعوا أطباق القزّ القليلة لحمايتها من العاصفة الرملية فيما مضى.

أحياناً كان الألم يجبره على النباح. فكان الأب ينبح مثل كلب، ويعوي مثل ذئب. وكانت جدتي تزحف إليه وتعانق ساقيه بذراعيها النحيلتين، فيما تجلب الأم جرّة الماء والفوطة لتمسح العرق عن وجهه ولتساعده على تجرع الماء، لعل برودة المياه تطفىء النار المشتعلة في جوفه.

لكن، لا مياه النبع المبرّدة في جرة الفخار، ولا ثلج الشتاء، تمكنا من إطفاء تلك النار التي كانت تمزق بطن الأب. وذات فجر إستيقظت جدتي زهية ـ وكانت لم تبلغ الثالثة عشرة من عمرها بعد ـ وهي تحسّ جسدها خفيفاً كالفراشة لأنها لم تسمع أنيناً في الليل. كانت تحسب أن أباها قد حظي بليلة مريحة

وخالية من الأوجاع. وبعد أن لفّت البطانية حول نفسها وهي تقف وسط الغرفة، في غبشة الفجر الرمادية، إستدارت ومشت نحو الزاوية كي ترفع البطانية المجعوكة وتغطي جيداً كتفيّ الأب. لكنها قبل أن تخطو الخطوة الثانية أحسّت بثقل مفاجىء في مركز معدتها وتجمدت كلوح جليد. فيما بعد صرخت ـ وكان ضوء الصباح قد بان خيطاً نحيلاً تحت الباب الكبير ـ فاستيقظت الأم، واكتشفت أن الأب قد مات خلال الليل دون أن يوقظهما.

بعد موت الأب أصابهما الفقر. ولم تلبث الأم أن أصيبت بفالج نصفي.

خلال تلك الفترة سمعت جدتي للمرة الأولى بميتم القريّة. وكان الميتم المذكور يضم مئة وثماني عشرة فتاةً يتيمةً تلقّنّ دروساً في غزل الحرير وتمرّنّ على العمل في بيوت القزّ وفي الكراخين. والميتم كان بإدارة راهبات البيزنسون. وتمويله كان يأتي من شركة «أرملة غيران وأولادها»، وهي شركة فرنسية إشترت كرخانة بلدة القرية في عام 1900 وأدخلت آلات غزلٍ حديثة إلى لبنان، وهذه الآلات كانت تستخدم لفتل أربعة خيوط من الحرير في خيط واحد، بعد أن كانت الآلات القديمة غير قادرة على فتل أكثر من خيطين.

بعد أن وصل خبر هذه الشركة التي تملك ميتماً تابعاً لمعاملها إلى أذني جدتي زهية ذهب النوم من عينيها.

وفي فجر يوم معتم من أيام الشتاء همست جدتي في أذن الأم النائمة أنها ستنزل إلى الوادي لتجمع بعض الحطب، وقالت لها إنها قد تتأخر كي تعود، وأخبرتها إنها تحبها كثيراً، ثم

غادرت البيت وتوجهت إلى بلدة القريّة، فوصلتها منهكة ولاهثةً بعد ثلاث ساعات من تسلق التلال وهبوطها.

في حديقة مزروعة بأشجار وردٍ كبيرة قابلتها راهبة وجهها مدوّر وأبيض كالثلج، وعيناها صغيرتان وسوداوان. تحدثت جدتي بسرعة ثم صمتت منتظرةً جواب الراهبة.

قالت الراهبة: لماذا تريدين أن تعيشي بيننا وبعيداً عن أمك؟

قالت جدتي: «لا أريد أن أبقى بعيدة عن أمي. سأنام هنا بعض الليالي وفي بيتنا الليالي الباقية. لكن بالعمل في مصنعكم سأجني ما يكفينا كي نعيش».

قالت الراهبة: عندي لك حل أفضل.

دخلت جدتي الصغيرة مع الراهبة إلى الداخل. وفي غرفة فسيحة قدمت لها الراهبة كوباً من شراب التوت، وحبّات ملبّس باللوز زرقاء اللون، ثم إنصرفت إلى كتابة رسالة.

وكانت الرسالة موجهة إلى رئيس العمال في كرخانة بورتاليس. وجدتي لم تكن تعرف القراءة. لكنها عرفت، فيما تقطع التلال مرة أخرى في الإتجاه المعاكس، أنها قد حصلت على عمل جيد في مكان قريب من أمّها، وأنها ستتذكر تلك الراهبة الطيبة ولن تنساها أبداً.

بالنسبة إلى حصولها على عمل كانت جدتي قد أصابت في ظنّها، أمّا بالنسبة إلى ذكرى الراهبة الطيّبة التي ستبقى معها دائماً ولن تتركها أبداً، فإنّ جدّتي كانت تبالغ في ثقتها بنفسها. لأن الخرف الذي أصابها في أواخر أيامها محا من ذاكرتها كل الوجوه التي رأتها خلال حياتها. بإستثناء وجه أنطون الأصفر طبعاً،

وتلك الوجوه الأخرى التي تشبهه إلى حدّ التطابق، كما كانت تعتقد، كوجهي، أو كوجه جوزف بابازواغلي.

(كيف تحوّلت جدتي من عاملة بسيطة إلى...)

في أيامها الأخيرة، كانت جدتي ترى دائماً في المنامات، أنها تقف وحيدة وسط الكرخانة، والبخار يتصاعد كثيفاً من الخلاقين الكثيرة التي تحيط بها. وفي الصباح، حين تستيقظ، كانت تروي لي مناماتها بصوت حزين.

ـ لماذا صوتك حزين يا جدتي؟ أسألها.

فتخبرني أنها تموت.

وتقول: قدم هنا، وقدم هناك، إنني أدخل قبري قبل موتي.

ـ لماذا تقولين هذا؟ أسألها.

فتخبرني أنها لم تعد تشم الروائح.

وتقول: حتى في المنام لم أعد قادرة أن أشمّها. أنت لا تعرف رائحة الكرخانة. حتى الذين لا يشمّون شيئاً، رغماً عنهم يشمون رائحة الكرخانة. إنها رائحة حادة وكريهة ومقرفة. ولا أحد يقدر أن يعتاد عليها، حتى لو إشتغل في كرخانة ألف سنة وسنة.

وأقول لها، كي نبتعد عن سيرة الموت، إن لديّ صديقاً كان والده يملك مزرعة لتربية الدجاج وأن هذا الصديق يخبرني دائماً الأمر ذاته عن رائحة المزرعة.

ـ ماذا؟ تسألني، كأنها دخلت إلى الغرفة للتو.

ـ الرائحة الكريهة، أقول، الرائحة يا جدتي.

قبل سنوات بعيدة، حين بدأت جدتي العمل في كرخانة بورتاليس، صدمتها الرائحة الفظيعة التي تتصاعد من خلاقين المياه الساخنة، إذ تُرمى الشرانق إلى داخلها.

ـ هذه رائحة الديدان التي تعيش داخل الشرانق.

حين سمعت جدتي ذلك لم تصدق العاملات. قالت لي إنها كانت صغيرة جداً، آنذاك.

قالت جدتي للعاملات: «كيف؟ ألم تتحول إلى فراشات خلال الليل؟ أليست هي في السماء؟».

وهكذا سمعت الحقيقة عن دود القزّ: «إننا لا ننتظر حتى تتحوّل الدودة إلى فراشة لأن الفراشة ستثقب الشرنقة كي تخرج منها، وبالتالي ستمزق خيطان الشرنقة وتفسد خيط الحرير».

في البداية لم تصدق. لكنهنّ أشرن بأصابعهنّ إلى داخل الخلقين. فرأت للمرة الأولى الديدان السوداء المتقلصة وهي تعوم على وجه المياه الساخنة ثم تلتصق بجوانب الخلقين. ورأت ـ فيما عصا إحدى العاملات الواقفات قربها تدور داخل المياه ـ الشرانق تتجمع في الجانب الآخر، وقد سال عنها الصمغ فإنحلّ خيطها. وراقبتها تطوف على وجه المياه هي أيضاً. الشرانق البيضاء هنا، الديدان السوداء هناك.

داخت جدتي من المنظر ومن الرائحة. إقتربت ناظرة العاملات وسألتهن ما الأمر. بعد ذلك أخذت جدتي من يدها ومشت بها حتى بوابة الكرخانة وأوقفتها هناك.

قالت جدتي: «أريد أن أخرج، أريد أن أتنفس».

قالت لها الناظرة: «إنتظري قليلاً وإلاّ ضربك الهواء. هنا

الجو ساخن بسبب البخار. تعلمي أن تنتظري دائماً في المدخل حتى تعتادي على هواء الخارج».

كانت الناظرة تتكلم بهدوء، بينما تنظر نحو العاملات المنهمكات في تحريك العيدان الطويلة داخل الخلاقين لفصل الديدان الميتة، عن شرانق الحرير. وأحست جدتي أنها تختنق، وأفلتت، وإندفعت عبر البوابة المفتوحة.

فيما بعد عادت إلى الداخل واعتذرت من الناظرة، ثم مشت إلى مركزها السابق. أمسكت بالعود الطويل وباشرت العمل. كان ذلك نهارها الأول. وعند المساء وقفت في الصف الطويل وراقبت رئيس العمال وهو يخرج القروش من الكيس الجلدي ثم يدفع لكل عاملة خمسة قروش. وكان بين العاملات من نالت أربعة قروش، وكان هناك واحدة أعطاها سبعة قروش. وكانت ناظرة العاملات تقف إلى جانبه وتهمس في أذنه. وسمعت جدتي خلفها همساً، والتفتت ورأت عاملة طويلة ونحيلة جداً تشير إليها ثم تخبرها أنه، أي رئيس العمال، لن يدفع لها أكثر من قرشين لأنها ما تزال «متمرنة»، وأن عليها أن لا تقلق. وإبتسمت جدتي للمرأة الطويلة والنحيلة جداً، ثم استدارت فرأت أن الصف قد تحرك إلى الأمام خطوة، فلحقت به.

حين وصل الدور إليها فكرت جدتي أن رئيس العمال قادر على سماع نبضات قلبها. وكانت نظرات جدتي مثبتة بالأرض. وأحسّت بالناظرة، البدينة بعض الشيء، وهي تميل صوب رئيس العمال البدين أيضاً. وفكرت أنها تخبره بما جرى لها في الصباح الباكر، وكيف أنها داخت وخرجت من الكرخانة ثم ظلت في

الخارج قرابة الساعة قبل أن تعود. وقالت جدتي لنفسها إنهما سيدفعان لها قرشاً واحداً فقط، أو حتى نصف قرش. وحين تذكرت أن الناظرة مرّت إلى جانبها عند الظهيرة وراقبتها وهي تنتشل الشرانق من الخلقين بالملعقة الخشب الكبيرة المعقوفة الرأس، ثم تصفّها بحذر على الطبق الطويل، تذكرت جدتي أيضاً أنها رأت طيف ابتسامة على وجه الناظرة، وأنها لم تعرف كيف تفسر تلك الإبتسامة.

وقالت جدتي لنفسها: «لكن هل كانت تبتسم حقاً؟ وإذا كانت تبتسم فهل أعجبها عملي، أم أنها كانت تسخر منه؟ لكن، ماذا لو كانت تبتسم لسبب آخر لا أعرفه ولا علاقة لي به أبداً؟».

وكان رئيس العمال يضع يده داخل الكيس. وجدّتي عرفت ذلك من رنين القروش. وكانت ما تزال تحدّق في الأرض وقد نست الآلام في كتفيها وصدرها.

العاملات أخبرنها: هذه الليلة لن تنامي من الوجع. وجع الأيدي من الشغل، ووجع الصدر من البخار. وفي الغد سيكون الألم أقل. وستتعلمين أن لا تشتغلي بسرعة كما تفعلين وإلاً ضربناك.

وتذكرت جدتي كيف انطلقن معاً في ضحكة واحدة، وكيف ساد الصمت فوراً حين التفتت الناظرة صوبهنّ، وفكرت جدتي أنهنّ إبتسمن لها، وتذكرت، أنها أحسّت بالعجز حين تكلمن معها على ذلك النحو.

وقالت جدتي لنفسها: بلى، إني عاملة نشيطة. لكن كان عليّ أن لا أدوخ في الصباح.

وسمعت رئيس العمال يتكلم: «أنتِ زهية إبنة المرحوم ميشال عبود». ثم تابع فجأة: «إبنة أبو أنطون؟».

لم تفهم جدتي نبرة الإستغراب في عبارة الرجل. قبل يومين حين جاءت إلى هنا وأعطته رسالة الراهبة، سألها عن اسمها وأجابته، فلم يُبدِ الإستغراب. وبعد ذلك قرأ الرسالة مرة أخرى، وقال لها إن الكرخانة مقفلة في الغد لأنهم يركّبون فيها آلات غزل وصلت حديثاً، وقال لها أن تأتي في النهار الذي يليه. أي هذا اليوم.

وكرّر رئيس العمال: «أنتِ إبنة أبو أنطون».

وهزّت جدتي رأسها، وكان القلق يشدُّ أعصاب معدتها تماماً، وفكرت أنها ستمرض.

لكن رئيس العمال إبتسم لها ثم إلتفت صوب الناظرة وسألها بصوت مسموع: «وهل هي جيدة؟». وحين أجابته الناظرة بإبتسامة مماثلة أخرج من الكيس خمسة قروش وأودعها اليد الصغيرة التي امتدت مفتوحة ومرتعشة.

في الأيام التالية اكتشفت جدتي أن والدها كان يعمل سمسار حرير لمصلحة كرخانة بورتاليس. المرأة الطويلة والنحيلة جداً، والتي تدعى سلمى، شرحت لها معنى ذلك.

قالت سلمى: السمسار هو الرجل الذي يدور في القرى ويشتري الشرانق من المربين ثم يجلبها إلى الكرخانة. إنه يشتري بمال الكرخانة طبعاً. لكنه في المقابل ينال نسبة معينة من المال. وإذا كان شاطراً ينال المزيد.

ـ كيف؟ سألتها جدتي.

قالت سلمى: بأن يشتري الشرانق من المربين بأدنى سعرٍ ممكن. وبالتالي يربح الفرق بين هذا السعر وبين سعر السوق.

ـ سعر السوق؟ قالت جدتي.

وسألتها سلمى: هل أشرح لك ذلك أيضاً؟

وابتسمت جدتي وقالت لا، وقالت إنها أحياناً تفهم الأشياء في قلبها، وأن أباها رحمه الله، كان يقول إنها تشبهه وأنها تفهم مثله.

ـ إذاً، لهذا السبب لم يكن سمساراً شاطراً. قالت سلمى.

وكانت تبتسم، ولم تفهم جدتي قصدها، لكنها فكرت أنها تشبه أمها قبل أن تمرض وتصير مشلولة.

ثم ذات يوم، وكان الصيف ينتهي، والمطر قد بدأ يتساقط بين حين وآخر، دخل بروسبر بورتاليس إلى الكرخانة وهو يخلع معطفه الأسود الطويل، ثم أشار إلى رئيس العمال أن يجمع العاملات كي يتكلم معهنّ.

كان يريد مساعدة له في المختبر، وكان يريدها صغيرة لأن دود القزّ يطمئن غريزياً إلى رائحة الصغيرات. وأخذت الناظرة تدور بين العاملات وتشير إلى الأصغر بينهنّ. وكان هناك عشرون عاملة في عمر واحد تقريباً، وكنّ الأصغر، وبينهنّ كان جدتي.

وارتدى بروسبر بورتاليس معطفه وخرج ولحق رئيس العمال به وخلفهما مشى صف العاملات الصغيرات. ودار بروسبر بورتاليس حول مبنى الكرخانة حتى وصل إلى المخزن القديم الذي بناه أبوه قبل زمن طويل ثم قام هو، بروسبر، بتحويله إلى مختبر. بروسبر، مواليد 1855، بتاتر، جبل لبنان. بروسبر الذي

تلقى العلوم في فرنسا، وخدم في جيشها، ورأى أهوال الحرب. بروسبر الذي عاد إلى بلدة طفولته، وإلى كرخانة والده، لأنه عرف أخيراً ماذا يريد من هذه الحياة.

وكان الآن يقف وسط مختبره المكوّن من قاعة واحدة فسيحة غطت جدرانها الرفوف والأدوات المعدنية والأنابيب الزجاجية. وفي أعماق القاعة الطويلة كانت الطاولة الخشبية العالية التي صنعوها له في حَمّانا من خشب السنديان. وفوق الطاولة كانت أثمن آلة لديه: ميكروسكوب كبير جلبه معه من مرسيليا مفككاً إلى ثماني قطع وملفوفاً بالقطن ومحفوظاً داخل صندوق خشبي متين. وكان الميكروسكوب يقف على الطاولة الآن مثل تمثال صغير، والضوء الشتائي الداخل عبر الكوّة العالية للجدار الشرقي، يلمع فوق قاعدته وينعكس بإتجاه البوابة.

وكان بروسبر يقف وسط مختبره، والضوء يقطع عتمة الصالة الخفيفة كأنه أنبوب طويل شفاف أبيض اللون، فيمر على بُعد إصبعين من بطنه ثم يواصل طريقه حتى البوابة. وحين يرفع بروسبر يده يتحرك رئيس العمال الواقف في المدخل ويشير إلى إحدى الصغيرات المنتظرات في الخارج فتتقدم نحو البوابة.

ووراء بروسبر تماماً كان هناك مقعد خشبي مرتفع. وفوق هذا المقعد وضع بروسبر علبة غطّى قعرها بورق السنديان وفوق هذه الأوراق كانت تزحف سبع ديدان زرقاء اللون مصدرةً صوتاً يشبه صوت طاحونة البنّ.

تدخل الفتاة الصغيرة وتتقدم خطوتين ثم تقف، إذ هكذا قال لها رئيس العمال حين كانت في الخارج. وبروسبر ينظر إليها

وينتظر حتى ينقل الهواء رائحتها إلى الديدان المتحركة في العلبة الصغيرة خلفه.

أول فتاة، بعد دخولها بدقيقة واحدة فقط، جعلت الديدان ترفع رؤوسها السوداء والمستطيلة لبرهة قصيرة، ثم تلتف على نفسها وتتصلب تماماً كأنها قد ماتت. ومع الفتيات الأخريات سيتكرر الأمر ذاته بفارق ثوان قليلة. البعض إستغرقت رائحتهنّ كي تصل إلى الديدان دقيقة وعشرين ثانية. وكان بروسبر ينظر إلى الساعة الذهبية التي تتدلى من جيب الصدرية ويتنهد ثم يرفع يده مرة أخرى وينتظر دخول الفتاة التالية حافية القدمين كما الفتاة التي سبقتها.

مرّت تسع عشرة فتاة. بين الواحدة والأخرى كان يحرك مروحة صينية صغيرة فوق علبة الدود كي تزول الرائحة. وعلى الفور كانت الديدان تعود إلى إلتهام الورق والزحف فوقه. وقال بروسبر لنفسه إن حظّه تعيس في هذا اليوم. وأن عليه أن يبحث في الكرخانات الأخرى أو ينشر إعلاناً في القرى المجاورة أو...

وفكّر بروسبر أنه حاول كل شيء كي تنجح هذه التجربة وكي يجد مساعدة فتيّة تملك الرائحة المناسبة. وأحسّ بوجع في مفاصله وفكّر أنه هواء الخريف. والتفت ونظر إلى «الأباجور» المقفل للنافذة الطويلة خلفه، فرأى خيوط الضوء المتوازية. وقال إن الشمس ستغيب بعد قليل، وأن نهاره قد ذهب هدراً. وفكر بروسبر مرة أخرى أنه حاول ما في وسعه لإنجاح هذا الإختبار. فهنّ يدخلنّ حافيات لأنه طلب ذلك. فهكذا لا تصدر عنهنّ أدنى

ضجة ويعرف بالتأكيد أن أي اضطراب سيصيب الديدان لا علاقة له بضجة أو بصوت، بل بالرائحة والرائحة فقط. وأعاد بروسبر الساعة الذهبية إلى جيب الصدرية. وحين نظر إلى الميكروسكوب أحسّ بالخيبة مرة أخرى. وكان أنبوب الضوء قد إختفى الآن، لأن الشمس قد عبرت السماء فوق سطح المختبر ومضت إلى الجهة الأخرى. واستدار بروسبر كي يغادر المكان وعندئذ فقط أبصر جدتي داخلةً.

كان رئيس العمال قد احتفظ بها حتى النهاية لأنه كان يخاف غرابة أطوار سيده الفرنساوي. وحين وصل الدور إليها تأخر في إرسالها لعلّ سيده يترك المختبر ولا ينتبه للنقصان في عدد الفتيات العشرين. أما وقد تأخر السيد بورتاليس في الخروج فهذا يعني أنه يعدّهنّ واحدةً واحدةً، وأنه ما يزال بإنتظار الأخيرة. وفكّر رئيس العمال أنه حاول كل ما بوسعه من أجل إبنة الرجل الذي كان صديقه قبل سنوات بعيدة، وقال لنفسه إن الربّ يراقب كل شيء، وقال: «كلهنّ فشلن في الإختبار فلماذا ستنجح هي؟» وأشار إليها أن تدخل.

ومشت جدتي وتجاوزته ودخلت عبر البوابة ونسيت أن تتوقف بعد أول خطوتين. وتابعت طريقها ثم وقفت أمام السيد بروسبر ونظرت إلى الأرض. والسيد بروسبر نظر هو أيضاً إلى الأرض وإنتبه إلى قدميها الصغيرتين جداً، وكان ما يزال يسمع حفيف الديدان. وكان الهواء يدخل عبر البوابة ويحرك خصلة شعر قصيرة كانت معلقة فوق الأذن اليسرى لجدتي. وأغمض السيد بروسبر عينيه كي لا يرى الخصلة السوداء الناعمة،

واستدار. وأعطى جدتي ظهره ثم مال فوق العلبة مراقباً حركة الديدان.

كان يعرف أن الديدان قد إعتادت على رائحته. أو بالأحرى قد خرجت من بيوضها معتادة على رائحته ـ كما سيشرح لجدتي فيما بعد. لكنه لم يفهم كيف أن الديدان بدت غير متأثرة على الإطلاق بوجود هذه الرائحة الغريبة للفتاة الصغيرة الواقفة خلفه.

وإذا كان قد أمِل أن يجد مساعِدة مناسبة، فأقصى ما كان يتوقعه أن مساعدة كهذه لن تسبب ذعراً فظيعاً لديدانه. أما أن لا تتسبب بأي ذعر للديدان على الإطلاق... كان بروسبر مدهوشاً. وفكّر أن الديدان تأكل بنشاط أكبر وأن حيويتها قد زادت. وحين حاول أن يشم رائحة الفتاة الواقفة خلفه، لم يقدر على ذلك، فإستنتج أنها لا تملك رائحة.

أما جدتي فكانت مشغولة عن هذا كلّه بالبرد الفظيع القابض على قدميها الحافيتين.

(جملة إعتراضية)

للحظة تأملت هذه الكلمة: «جدتي».

بلى، تلك الفتاة الصغيرة التي تقف وسط ذلك المكان البعيد حافية القدمين ومرتجفة من البرد، أليس غريباً جداً التفكير بها كـ «جدتي»؟ أقصد أنها كانت فقط تلك الفتاة الحافية القدمين. حسناً، وكانت هناك خصلة شعر سوداء معلقة فوق أذنها اليسرى.

أن تصبح تلك الفتاة أمّاً، ثم أن تصبح جدّةً لي، أليس في

هذا غرابة؟ حسناً، ستقولون لي إن هذه هي الحياة، وإن جميع الأجداد كانوا قبل زمن بعيد أولاداً، وأحفاد عجائز آخرين.

فأقول: لكنها حياة غريبة.

وحين أقول ذلك أعرف أنني فقط أكرر كلام آخرين. كلام سهيل بابازواغلي مثلاً. لكن أيضاً، وكما ستكتشفون إذا تابعتم القراءة، فإني أكرّر تقريباً كلام المسيو الفرنساوي بروسبر بورتاليس.

وربما، كلام جدتي.

(حكاية الفراشة التي طارت)

هناك صورة محفوظة في ألبوم العائلة تظهر فيها جدتي مرتديةً ثوب الزفاف الأبيض، وواقفةً إلى جانب جدي سليم، الذي يبدو في البذلة السوداء الغامقة شاحب الوجه ونحيلاً كعود يابس. أمامهما تظهر والدة جدتي جالسةً على كرسي خشبي، وجانب وجهها مغمور بظل أسود. وخلف جدتي وجدي يظهر الفرنساوي بروسبر بورتاليس وإلى يساره زوجته باتال.

المصور الأرمني، الذي نجهل إسمه، والذي جاء من بيروت بالقطار الحديدي خصيصاً لإلتقاط هذه الصورة، قال لجدي فيما بعد أن هذه الصورة قد تكون واحدة من أجمل الصور التي إلتقطها خلال حياته المهنية. وقال المصور إنه كان يجهل مركز الجاذبية القوية لهذه الصورة، لكن مصوراً آخر يعرفه منذ سنوات ويثق بـ «عينه» قدّم له هذه النصيحة الهائلة: «ضعْ إصبعك على وجه الرجل الواقف في الخلف، ثم أُنظر ماذا يحصل للصورة؟».

الآن أُنفذ تلك النصيحة وأعرف أن الأمر صحيح. هناك شيء ما في وجه بروسبر بورتاليس يعطي للصورة جاذبيتها الخاصة.

أتفحص الموضع الذي أخفيته بإصبعي قبل لحظة: أول ما تقع عليه العين تلك النظرة القوية التي تنبثق من عينيّ بورتاليس. كأنه يحدق بنا. وبعد ذلك ننتبه لشاربيه الكثيفين اللذين يتصلان تقريباً بلحيته البيضاء المشذبة والأنيقة. إنها ليست لحية طويلة، وهي توحي بصلابة صاحبها وعزمه الأكيد، وشعيراتها القصيرة تبدو حادة كالإبر. الجبهة عريضة. والشعر، الذي يخطّطه الشيب بوضوح، مفروقٌ إلى اليمين ومصففٌ بعناية. وماذا أيضاً؟ ثمة إنتفاخ ظاهر تحت العينين، وهو ناتج عن العمر المتقدم للرجل ربما. وقرب الأنف، في الجانب الأيسر من الوجه، تظهر ثلاث شامات صغيرة فترسم خطّاً متقطعاً وشبه مستقيم.

وثيابه؟ إنه يرتدي معطفاً غامق اللون، وأزراره مدوّرة وكبيرة. لا نعرف لون البنطال الذي يرتديه ولا نعرف شيئاً عن حذائه لأن جدتي وجدي يقفان أمامه. لكننا نرى الياقة البيضاء حول عنقه، وعقدة الياقة تبدو مفكوكة. وهناك نظارة ذهبية تتدلى فوق صدره.

لماذا يترك عقدة الياقة مفكوكة؟ هل كان الجو حاراً؟ وإذا كان حاراً فلماذا يرتدي معطفاً؟

خلال شهرها الثالث في المختبر حكى بورتاليس لجدتي عن فرنسا وعن دراسته في جامعة السوربون. لقد كان ذلك في ثمانينات القرن الماضي. وخلال تلك الفترة كان العالم الفرنسي

الشهير لويس باستور أستاذاً محاضراً في صفوف السوربون. وهكذا أتيح لبروسبر ـ ولزملاء بروسبر ـ التوصل إلى اكتشاف مذهل: إن بروسبر بورتاليس هو ـ شكلاً ـ نسخة طبق الأصل عن لويس باستور. كانا يملكان النظرة نفسها، الشعر المرتب والمفروق إلى اليمين، اللحية الأنيقة وغير الطويلة والمتصلة بشاربين كثيفين، وأيضاً: الشامات الثلاث في الجانب الأيسر من الوجه.

طبعاً شعر بروسبر لم يكن مخطّطاً بالشيب آنذاك. كذلك فإن الجلد تحت عينيه لم يكن متورماً أو منتفخاً. وسرعان ما ظهر جلياً أن أنفه كان أصغر من أنف باستور العملاق. لكن هذه المقارنات جميعها، ومحاولات البحث عن فوارق بين وجهي الطالب والبروفسور، والتي أصبحت مدار تندّر في جامعة السوربون آنذاك ـ حسب ما روى بروسبر لجدتي ـ لم تلبث أن تحولت إلى واسطة تعارف قوية بين باستور وبورتاليس.

قال بروسبر: «ذات يوم، وبعد أن إنتهى باستور من المحاضرة أشار إليّ وطلب مني أن أتبعه إلى مكتبه».

في المكتب الواسع رأى بروسبر «ميكروسكوب» أميركي الطراز مثبّتاً فوق طاولة في الزاوية. وعلى الجدار المواجه للباب رأى صليباً خشبياً وقربه صورة لمريم العذراء. كان هذا واحداً من الأمور التي طالما جلبت الحيرة إلى بروسبر: كيف يمكن لعالم يؤمن بالتجربة والإختبار مثل باستور أن يكون في الآن نفسه صاحب إيمان مسيحي غير قابل للإهتزاز أبداً؟

قال باستور: تعال وقفْ هنا!

والآن، بينما يقف على بُعد خطوة منه، إنتبه بروسبر جيداً إلى الجهد الذي يبذله البروفسور حين يتحرك. فخلال المحاضرات يقف البروفسور خلف طاولة مرتفعة تحمل أوارقه وتخفي جسمه بالكامل تقريباً. وحين يغادر عبر الباب الصغير القائم خلفه بخمس خطوات فإنه يفعل ذلك بهدوء وبخطى قصيرة وواثقة تنمُّ عن وقار وإعتداد بالنفس. لذلك فإن معظم الطلاب كانوا يجهلون كل شيء عن الشلل النصفي الذي أصاب جانب باستور الأيسر قبل أكثر من عشر سنوات، والذي لم يتعافَ البروفسور من آثاره حتى هذه اللحظة.

إلى يمين الطاولة رأى بروسبر مرآة مستطيلة تغطي جزءاً من الجدار. وإلى يمين المرآة رأى صليباً من النحاس الأصفر.

قال باستور: لا تنظر إلاَّ في المرآة. هذا وجهي وهذا وجهك. والآن كنْ عالماً حقيقياً وقلْ لي بماذا يتشابه وجهانا؟

فكّر بروسبر أن البروفسور غاضب قليلاً. في عام 1865، وكان بروسبر يبلغ العاشرة من عمره، أخبره والده فرتوني للمرة الأولى عن العالم الذي يدعى لويس باستور. آنذاك كان باستور يعمل في منطقة جبلية من فرنسا على إكتشاف أمراض دود القزّووسائل علاجها. وفرتوني قال لإبنه إنهم في «بلدنا فرنسا» يثقون كثيراً بقدرات هذا الرجل، وأنه هو أيضاً يثق به، وأما الكلام الكثير الذي يُقال عن طبعه الحاد فهو لا يعني شيئاً إطلاقاً.

والآن كان على بروسبر أن يقدم جواباً للبروفسور باستور. وتدريجياً لاحظ أن جبهة البروفسور هي أعرض من جبهته، وأن أنفه هو بالفعل صغير جداً إذا ما قورن بالأنف العملاق

للويس باستور. كذلك لاحظ الخطين المائلين المحيطين بشاربي أستاذه.

لكن كيف يصف له هذه الفوارق؟ وهل سينجح؟ أم أن البروفسور سيجده «مجرد تافه آخر» لا قيمة له؟ بلى، لقد سمع عن حدّة آراء باستور كثيراً. وعن قسوته أيضاً.

قال باستور: «سأجيب بنفسي عن سؤالي. ففي النهاية لا أحد يقدر أن يجيب على أسئلة المرء كما يستطيع المرء ذاته».

في المرآة رأى بروسبر إبتسامة باستور.

تابع باستور: «إنك لا تشبهني بشيء».

كان قد توقف عن الإبتسام وفكّر بروسبر أنه فعلاً لا يشبهه أبداً. كان فقط يبدو كأنه يشبهه. بسبب من اللحية البيضاء القصيرة. وبسبب من الشامات الثلاث. فقط لا غير. ثم حين تحدث الزملاء عن شبهٍ ما أعجبته الفكرة. فأخذ يتعمد ارتداء ثياب مشابهة للبروفسور. بل وإنه اشترى نظارة ذهبية كتلك التي تتدلى فوق صدر باستور من خيط معلق حول عنقه. لكن هذا كلّه لا يعني أنه يشبه باستور. بل ربما عنّي عكس ذلك تماماً.

وكرّر باستور: «إنك لا تشبهني بشيء على الإطلاق».

وعرف بروسبر أن عليه أن يغادر المكتب فغادره. وبعد أيام قليلة غادر الجامعة وتحول إلى جندي.

ـ لكن لماذا؟ سألت جدتي بعد أن أخبرها حكايته.

ـ لأنني قررت البحث عن الفراشة التي طارت. ولأنني كنت قد فهمت أخيراً أنني لن أجدها في السوربون.

ـ الفراشة التي طارت، سألتْ جدتي.

وعندئذ أخبرها.

قال بروسبر إن هذه هي قصة حياته. وأنه عاد إلى هنا من أجلها. وأنه بنّى هذا المختبر للسبب نفسه.

ـ «أنا رأيتها. وكانت زرقاء. وصعدت إلى السماء. وكنت أرى الضوء يخرج منها. ثم اختفت». قال لجدتي.

وقال إنه كان في السابعة من عمره آنذاك. وبعد أيام قليلة قرّر والده أن يرسله إلى فرنسا فيدرس في إحدى مدارسها الداخلية ثم يتابع تحصيل علومه في السوربون. حاول بروسبر الإعتراض. قال إنه يريد أن يبقى في بتاتر وأنه لا يريد أن يسافر لأن الفراشة قد تعود في غيابه ولأن عليه أن ينتظرها.

أجابه والده: فراشات الحرير التي هنا لا تطير. هناك فراشات كهذه في بعض البلدان لكنها غير موجودة هنا. وحتى لو كانت هنا، وحتى لو طارت، فهي لا تقدر أن تحلّق عالياً. وحتى لو حلّقت وصعدت حتى السماء ثم تلاشت، فإن الضوء لا يمكن أن يخرج منها. بلى، أعرف أنك لا تخترع هذه الحكاية يا بُني لأنني أعرفك ولأنني أثق بك ولأنك لا تكذب. . .

ـ إذاً؟ قاطعه بروسبر الصغير.

ـ «في أغلب الظن كنت تحلم». أجابه أبوه فرتوني.

ذهب بروسبر إلى فرنسا. وحين انتهى من المدرسة قرّر العودة إلى بتاتر فأرسل رسالة طويلة إلى أبيه بالباخرة. بعد ثلاثة

أسابيع وصله الردّ: «لا تأتِ إلى هنا. إني أمنعك. تريد أن تجد فراشتك. أنا أقول لك أينَ هي فراشتك. إنها في السوربون. إذهبْ إلى هناك وكنْ طالباً مجتهداً. أدرسْ كل ما يمكن درسه عن دود القُزّ وسوف تجد فراشتك حتماً. إننا نستورد هذه الأيام بيوض قزّ هندية. إنها تختلف عن بيوض القزّ الصينية واليابانية التي كنا نربيها والمنتشرة في هذه الجبال كما في بلادنا. هذه البيوض التي تأتي من الهند لا نفقسها خلال الربيع والصيف بل عند بدايات الخريف. نسميها بيوض «التشارين». والفراش الذي يخرج من شرانقها لونه أصفر، وبعضه تقريباً أزرق. وأجنحته أقوى من أجنحة الفراش الذي نعرفه. وهي تقدر أن تطير بين الأشجار كفراشات الحقول البرّيّة. إذاً، ربما كانت فراشتك موجودة حقاً. ونحن فقط لا نعرفها. لكن الطريق إليها ليست في الجلوس على مؤخرتك لإنتظارها في المطرح الذي شاهدتها فيه أول مرة. وأنت تعرف هذا جيداً. إذهبْ إلى السوربون وإعثر عليها».

في السوربون قرأ بروسبر كل الكتب المتعلقة بدود القزّ. ومع كل كتاب كان يكتشف أشياء جديدة لم يكن يعرفها، أو حتى يقدر على تخيلها من قبل. وهكذا أخذ ينتابه الإحساس القوي بأنه يقترب من الوصول إلى فراشته، وأنه قد يجدها مثبتة على صفحة من صفحات كتاب لم يفتحه بعد لكنه سيفتحه غداً أو بعد غد. طبعاً لن يخرج الضوء من صفحة الكتاب لأن ما سيراه سيكون صورة فراشته. لكن رغم ذلك فإنه سيفكر أنه قد

وصل. لأنه أخيراً سيثبت لأبيه أنه لم يكن يحلم وأن فراشته موجودة حقاً.

ـ إنظرْ! هذه هي صورتها. سيقول لأبيه منتصراً.

لكن هذا في النهاية لن يكون شيئاً. لا، يجب عليه أن يجد الفراشة نفسها، وليس صورة لها. يجب عليه أن يرى ذلك الضوء مرة أخرى. أبداً لن ينسى كيف تلاشت متحوّلةً إلى قطعة من السماء. ورفيف أجنحتها. وصوت الهواء إذ لامس جسدها النحيل والممشوق. بلى، هذه فراشة غير عادية. ولا يمكن أن تخرج من شرنقة صينية أو يابانية. لكنه رآها بعينيه الإثنتين. وكان جالساً في غرفة الشرانق، وكان والده قد غادر كي يتناول طعام الفطور.

كيف ينسى؟

رويداً رويداً كانت الدقائق تتبع الدقائق. مكث بروسبر الصغير هناك منتظراً عودة والده كي يشاهد الفراشات وهي تخرج من الشرانق. هذه ليست أول مرة يشاهدها. في السنة الماضية رآها. لونها رمادي وشكلها بشع وجسمها ثقيل وبدين لأنه مليء بالبيوض. حين لمسها وجدها رطبة ولزجة. سحب إصبعه وكان يحسّ بالقرف. أما والده فكان يبتسم ويطلب منه أن يلمس أجنحتها. وسيطر بروسبر الصغير على نفسه ولمس جناح إحداها بإصبعه فرأى غباراً يتطاير عن الجناح ويمكث معلقاً في الضوء الداخل عبر النافذة. كان ذلك في صباح يوم ربيعي. والآن سيتكرر الأمر. يجب عليه فقط أن ينتظر والده. فبعد أن يصل

الأب ستبدأ الفراشات بالخروج من الشرانق. جلس بروسبر في عتمة الفجر محدقاً إلى الشرانق البيضاء الصلبة. وأحسّ بالأرض باردةً تحته، وتثاءب.

أمه قالت له إنه ولد خلال موسم الحرير. في أيام الحرير تكون الضيعة مثل خلية النحل. الدود يأكل ليلاً نهاراً. وورق التوت يجب أن يكون طازجاً وناشفاً. والناس يركضون بين البيوت والجلول وعلى أكتافهم وظهورهم أحمال الورق الأخضر.

قالت أمه: «وذلك الصوت في أذني ليلاً نهاراً».

وقال والده: «صوت الدود وهو يأكل يشبه موج البحر».

وتثاءب بروسبر مرة أخرى وكان الضوء قد دخل عبر النافذة وسقط فوق رف الشرانق. وفكّر بروسبر أن والده قد تأخر، فقام واقفاً وفتح الباب كي يذهب ويناديه. وكان يفكر أنه ربما قد غفا مجدداً دون أن ينتبه. وفي تلك اللحظة سمع ما يشبه الهمس خلفه فإلتفت. أربع شرانق تستقر عند حافة الرفّ كانت خيوطها تتمزق في وقت واحد تقريباً. ورأى بروسبر ثلاثة رؤوس صغيرة تخرج من الشرانق الثلاث الأقرب إليه، واحتار هل يتقدم خطوة أم يركض إلى البيت وينادي على أبيه. ثم قرّر أن ينادي على أبيه من حيث هو فالبيت ليس بعيداً.

وفي تلك اللحظة رآها. كان يستعد كي يصرخ لأبيه، وكان يجمع الهواء داخل صدره، وفي تلك اللحظة رأى الرأس الرابع يخرج من الشرنقة الرابعة. ولم يكن بنيّاً، ولم يكن أبيض، وبالتأكيد لم يكن رمادياً. بل أزرق كالسماء. كأن السماء كانت

تخرج من بطن الشرنقة المثقوبة. تلك الشرنقة الرابعة. علّق الهواء في حنجرة بروسبر. كاد يختنق. مال إلى الأمام كأنه يحاول إلتقاط الأنفاس التي هربت من رئتيه. وكان يسعل ثمّ استقام واقفاً. كان الماء في عينيه. ووضع يده على صدره وابتسم. كان يبتسم لأنه استعاد أنفاسه. وكان قد نسي رأس الفراشة الغريبة، لكن هذا النسيان لم يستمر لأكثر من ثوانٍ معدودة. وفي اللحظة التالية رآها فوق شرنقة الحرير المثقوبة. وكان جسدها ممشوقاً وأجنحتها متصلبة وزرقاء. ولم تكن تقفز فوق حافة الطبق كما الفراشات الثلاث الأخرى بل كانت ثابتة في مطرحها. ثم رأى أجنحتها تنتصب وفكّر أنها كبيرة جداً. وكان الضوء يلمع فوق حواف جسمها.

قال بروسبر لجدتي: «في مكتبة السوربون عثرت على رسم صيني قديم جداً يشبه الفراشة التي رأيتها».

المجلد الذي ضمّ ذلك الرسم كان أصفر ومتآكل الحواف. وصفحاته كانت ملتصقة بعضها ببعض. وبروسبر قال لجدتي إنه كلما فتح كتاباً قديماً وجد نفسه يتذكر ذلك الكتاب.

قال بروسبر «لن تصدقي، لكن رائحة ذلك الكتاب كانت حقاً تشبه رائحة بيت الشرانق. رائحة هي مزيج من أريج التوت ومن ملمس الحرير. رائحة لا أعرف كيف أصفها. جلست، وأمامي الكتاب المفتوح، وأغمضت عيني. كان الأمر كأنني قد عدت صبيّاً، وكأنني أرى الفراشة الزرقاء تطير صوبي ثم ترتفع في الفضاء. وحين التفت رأيتها تخرج من البوابة المواربة.

لحقت بها وكنت أفكر أن أبي هو نائم بالتأكيد. وفي اللحظة التالية نسيت أبي ونسيت كل شيء. فجأة عرفت أن هذه الفراشة ستختفي دون أن يبصرها أحد غيري. واللذة التي انتابتني كانت لذيذة وموجعة. لذة لم أعرفها بعد ذلك أبداً. وكنت أرى الضوء خارجاً من جسمها النحيل. وكنت أعرف أنها خفيفة لأنها لن تضع سبحة بيض كما الفراشات الأخريات ثم تميل وتقبض جناحيها وقبل نهاية اليوم تهمد وتموت. ورأيتها تصعد إلى السماء. ثم تلاشت وغابت عني».

جدتي سألته فيما بعد عن ذلك المجلد.

بروسبر روى لها أنه قضى حياته كلها يقرأ عن دود القزّ، ويحاول العثور على أنواع جديدة منها. بل إنه قام أيضاً بتزويج فراشات حرير صينية إلى فراشات برية كي يحصل على بيوض ربما فقست منها الدودة التي ستتحول فيما بعد إلى الفراشة التي يبحث عنها. قال بروسبر إنه طوال هذه الأعوام من القراءة والبحث والإختبارات كان يشعر أنه يفعل كلّ شيء ضمن ذلك المجلد الأصفر اللون.

قالت جدتي له إنها لا تفهم.

- «سأشرح لكِ»، أجابها، «إن الأمر هو كالتالي: فأنا أحسّ كلما حاولت أنْ أتذكر شيئاً قرأته - شيء ما عن دود القزّ الإفريقي مثلاً - إنني قد قرأت ذلك الشيء في ذلك المجلد الذي حدثتك عنه. وليس هذا فقط. أحياناً أتذكر تجربة قمت بها قبل عشر سنوات مثلاً - لنفرض أنها تجربة لتزويج أنثى يابانية بذكر هندي - حسناً اكتشف رويداً رويداً أنني قادر على تذكر التجربة بتفاصيلها:

أرى الفراشة الأنثى تخرج من الشرنقة اليابانية، وأرى الفراشة الذكر تخرج من الشرنقة الهندية. الشرنقة الأولى بيضاء. الثانية لونها يميل إلى الإصفرار. الفراشة الأولى صفراء اللون. الفراشة الثانية لونها بنيّ قريب من الأحمر. تحت الميكروسكوب أتفحصهما. أرى الدوائر على الأجنحة وأتأمل الخطوط حولها. بعد أن أتأكد أن الفراشتين خاليتان من الأمراض أقوم بتزويجهما. البيوض الملقحة التي خرجت من الأنثى بعد أقل من ساعة كان لونها أزرق ـ رمادي. تركتها طوال الشتاء في القبو. وفي الربيع جلبتها إلى هنا ووضعتها قرب منقل الفحم. خلال أيام فقست البيوض وخرجت منها الدودة. كانت تشبه النوع الهندي. لونها أزرق وتخاف من رائحة البشر. إنها نوع بري. وهي غير دود الحرير الذي نعرفه لأنها لا تأكل ورق التوت بل ورق السنديان. والهنود يتركونها على الأشجار ولا يربونها في الداخل مثلنا... المهم، إنتظرت. أكلت الدودة ورقاً طوال شهرين تقريباً ثم صعدت على العيدان ولفّت نفسها بخيطها. أولاً صنعت من الخيط صليباً كبيراً كانت هي تمكث في مركزه. بعد ذلك أخذت تلف شرنقتها من الخارج إلى الداخل كما تفعل جميع ديدان الحرير. وكانت سريعة جداً. وحين إنتهت من رسم الشكل الخارجي للشرنقة كان ما يزال بمقدوري أن أراها عبر الشرنقة الشفافة جداً. وبعد ذلك خلال ساعات قليلة، كانت قد لفّت طبقات كثيرة أخرى تحت الطبقة الأولى. وهكذا اختفت عن نظري. بعد أن اختفت كنت أعرف ماذا سيحصل. في الداخل ستتحول إلى زيز أسود، أي إلى دودة سوداء مجوفة مثل تلك الديدان التي تطوف ميتة على وجه الخلقين. ثم إذا كانت خالية

من الأمراض تتحول إلى فراشة. فتتساقط قشرة الزيز عنها وتتحرك أجنحتها ثم تخرج قطرة الأسيد من فمها فتمزق خيط الحرير وتخرج من الشرنقة. أليست حياة غريبة؟ وانتظرت، وبعد سبعة عشر يوماً خرجت. لكنها كانت فراشة هندية عادية. كلها، كل البيوض. أكثر من مئة بيضة. وكلها فراشات هندية عادية. راجعت كتبي. اكتشفت أن الأنثى اليابانية التي استخدمتها في تجربتي والتي كنت أعرف أنها من صنف بريّ أيضاً كانت أصلاً قد خرجت من تزاوج بين ذكر هندي وأنثى أفريقية. لكن، ما هذه المتاهة؟ أردت فقط أن أقنعك أن كل ما فعلته في حياتي هو مسجل داخل رأسي بأصغر تفاصيله. لكن هل تعرفين كيف أتذكره؟ أتذكره كأنني قرأته في ذلك المجلد حيث رأيت رسم فراشتي الزرقاء».

ـ الفراشة التي طارت. قالت جدتي الحزينة.

ـ الفراشة التي طارت. كرّر بروسبر بورتاليس.

في عصر ذلك اليوم، وبينما جدتي تلف نفسها بالشال وتستعد للمغادرة إلى البيت حيث تنتظرها أمها، سمعت صوتاً صادراً من مؤخرة المختبر. وحين استدارت رأت بروسبر بورتاليس جالساً إلى طاولة السنديان وقد غطّى وجهه بيديه الإثنتين. وقربه كان قنديل الزيت مضاءً، وإلى جانب القنديل كان الميكروسكوب.

نظرت جدتي إلى الحديد البارد للآلة الغريبة. بروسبر قال لها إن هذا ليس حديداً. هي لم تحفظ اسم المعدن الذي صنعوا منه هذه الآلة. كانت جدتي تخاف من الميكروسكوب. حين

أمسك بروسبر بالفراشة من جناحها ثم ثبّتها تحت القطعة الزجاجية المستطيلة وقال لجدتي أن تنظر عبر الأنبوب، أحسّت جدتي بألم خفيف في ركبتيها. ثم رأت الفراشة أكبر من السماء وقفزت إلى الخلف. كان ذلك قبل شهور بعيدة.

وكان هو جالساً يبكي الآن. اقتربت جدتي منه فقال إنه كل ليلة يحلم بها. وأن زوجته لطيفة وتريده أن ينام في سريرها لكنه لا يقدر. ولا يريد.

- كل ليلة أحلم بها... قال بروسبر بورتاليس.

وتساءلت جدتي ماذا ستفعل الآن.

- أراها عادت من السماء وأراها قربي ونتمدد معاً.

وكانت جدتي تتخيل الفراشة وهي تتمدد.

- هل تعرفين ماذا تقول لي؟

وقررت جدتي أنها ستبقى صامتة، فكيف ستجيبه؟ إنها تعرف الآن أن الديدان تموت داخل الشرانق لأن الناس يقتلونها بسهولة في خلاقين مليئة بالمياه المغلية، لأن الناس يحبون أن يرتدوا الثياب المصنوعة من الحرير. ولأن خيط الحرير متين وقوي. ولأنه طويل وليس مثل خيوط الصوف. بلى، تعرف الآن أن الشرنقة الواحدة قد يبدأ خيطها عند بوابة هذا المختبر فلا ينتهي إلاّ في ساحة البلدة.

- هل تعرفين ماذا تقول لي؟

وتساءلت جدتي ماذا يجب أن تقول. إنه هو من يعرف كل شيء عن الفراش والدود. هو من اختبرها. هو من جعلها مساعدة له طوال السنتين الماضيتين. هو من حكى لها عن تلك

الديدان الهندية الزرقاء التي لا تخاف رائحته لأنه كان يضع جواربه قربها في كل ليلة طوال الشتاء الذي كانت فيه ما تزال بيوضاً رمادية اللون. تلك الديدان التي لم ينتابها الذعر حين دخلت جدتي إلى المختبر للمرة الأولى في حياتها، لأن جدتي ليست لها رائحة.

وقالت جدتي لنفسها إنها يجب أن تتكلم. إنها تعرف أن الفراشة تولد ثم تبيض ثم تموت خلال يوم واحد فقط. والفراشة الذكر لا تبيض وإنما تلقح الأنثى. لكنها أيضاً تموت بعد ساعات قليلة. وهي أيضاً بالكاد تقدر على تحريك جناحيها. هي؟ لكنها فراشة ذكر. وفكرت جدتي أنها تضيع، وكان الرجل العجوز يبكي مرتجفاً على بُعد خطوة واحدة منها، وتذكرت أنه أخبرها أن الفراشات تعيش يوم حياتها الوحيد على الحب والماء الصافي. لأنها لا تأكل أبداً في هذا النهار لأن فمها لا يتحرك. فقط ترشف الماء إذا وجدته، وتتمايل كأنها ترقص للضوء الذي خرجت إليه أخيراً من عتمة شرنقتها الصغيرة.

ووجدت جدتي نفسها تقول إنها تعرف ماذا قالت له الفراشة. وفي اللحظة التالية كان العجوز يشهق ويكف عن البكاء.

عندئذ فقط تكلمت جدتي، وكان الضوء يخرج من عينيها. وكان بورتاليس يستمع إليها، ثم أخذ يبتسم.

(جدتي تداعبني)

كانت جدتي هكذا.

سألتها ماذا قالت لبورتاليس حتى توقف عن البكاء.

أجابتني إنها لم تعد تتذكر.

ـ هيا يا جدتي، قولي لي!

ـ لكني لا أتذكر. كان ذلك قبل سنوات طويلة جداً.

وتقول خالتي الصغرى ـ الجالسة بالقرب، والمنحنية فوق مسابقات التلاميذ التي تقوم بتصحيحها: «قبل ألف سنة وسنة».

وأفكر أنها قاسية هذه المرأة، وإنني لا أحب لهجتها حين تتكلم مع جدتي، وأنها مثل أمي وخالاتي الأخريات. ثم أقول إنها ليست مثلهنّ تماماً.

وجدتي تبعد وجهها ثم تبتسم. كأنها تريدني أن أفهم أنها لا تهتم لكلام إبنتها الصغيرة، ولا لبناتها جميعاً، ولا لأحد. وأنها فقط تهتم لكلامي.

فأبتسم لها: قولي لي.

فتكبر إبتسامتها: أنت. حاول أنت أن تعرف ماذا قلت له.

أصمت قليلاً، ثم أقول: تقصدين ماذا قالت الفراشة له، أليس كذلك؟

تضحك جدتي: صحيح، ماذا قلت أنا له إن الفراشة قالت له في المنام؟

أقول: إنها تحبه وتحب كيف يحبها.

تقول: هذا ما يقوله أهل البلدة. منذ تلك الأيام وهم يقولون إنه أراد أن يتزوج تلك الفراشة.

ترمي خالتي الصغرى الأوراق من يدها ثم تمضي مبتعدة.

نصمت قليلاً.

أقول: لا تهتمي لها! إنها هكذا! كالأولاد.

نضحك.

تقول جدتي: كالأولاد وهي أكبر منك بعشر سنوات.

أقول: ماذا قالت الفراشة؟

وجدتي تداعبني: «قالت له إنها جائعة لأنها طوال حياتها لم تأكل شيئاً أبداً».

فأبتسم، وأرى في عينيها وجهي، ولبرهة قصيرة أجدني أُشبه بروسبر بورتاليس.

(جوزف)

في آخر كل نهار تترك جدتي المختبر وتسير بمحاذاة جدار الكرخانة ثم تخطو إلى اليسار وتقف في المدخل بإنتظار خروج العاملات. هي تحب أن ترجع إلى بلدتها برفقتهنّ، خصوصاً في أيام الشتاء حين يتلاشى الضوء باكراً، فيَبْرد الجو، وتهبط الظلال المعتمة فوق الطريق، وتبدو لها الأشجار المتناثرة من حولها كأنها الأشباح التي تداوم على غزو منامات أمّها المشلولة.

خلال الصيف يأتينَ إلى هنا عند السادسة صباحاً ولا يغادرنَ قبل السابعة مساء. أما في هذه الأيام فيأتينَ مع خيط الفجر الأول، ويغادرنَ عند الرابعة والنصف بعد الظهر. وأحياناً تظلم السماء عند الرابعة، وعندما يصلنَ إلى البلدة يكون عواء الذئاب مسموعاً حتى آخر الدنيا. وهناك بينهنّ من عليها المتابعة حتى البلدة الأخرى وفي مرات كثيرة يصلنَ مبلّلات والوحل يغطي ثيابهنّ.

حين تغلق جدتي باب المختبر خلفها، تقف لحظة وتتنشق هواء الخارج. في الصيف قد يكون المختبر بارداً. في الشتاء قد يكون دافئاً جداً. الأمر يعتمد على تجارب المسيو بورتاليس. في البداية كانت جدتي تظل مريضة. الآن اعتادت. لكنها منذ أربعة أيام تحسّ بما يشبه المرض، وتواصل الإعتناء بالمختبر وحدها لأن بورتاليس مصاب بنزلة برد حادة.

الأرض مبللة ومليئة بالحفر الموحلة. قفزت جدتي فوق برك الماء. الكرخانة عن يسارها، والحقول عن يمينها. لون الفضاء كان برتقالياً وبارداً. في السماء نعقت الغربان الطائرة إلى أعشاشها. فتحت جدتي بوابة الكرخانة وانسلت إلى الداخل. ألقت التحية على رئيس العمال الواقف مع كيسه المليء بالقروش، ثم نظرت إلى الصف الطويل. كانت سلمى في نهاية الصف فلوّحت لها.

في الخارج إنتبهنَ إلى سرب من طيور السنونو. كانت الطيور السوداء ممشوقة القوام ومفرودة الأجنحة. وكانت هناك خطوط بيضاء طويلة تزين أجسامها. وفوق الطيور، وحتى الأفق، كانت السماء تتقوس وهي تفقد زرقتها وتتلون بلون غروب الشمس.

همست جدتي لسلمى: «هل ترين بأية سهولة تطير؟ إنها لا تحتاج حتى أن تحرك أجنحتها! فقط تترك الهواء يحملها».

إلتفتت سلمى إلى جدتي وإبتسمت لها. تبادلتا نظرات ذابلة. خلال السنتين المنصرمتين إعتادتا على هذه الرقّة المتبادلة.

قالت سلمى: «الخبر بات مؤكداً. الكرخانة لن يتم إقفالها.

فقط السيد بورتاليس سينزل إلى بيروت. وسوف يترك هنا وكيلاً يدير أعماله. وزوجته سوف تتنقل بين هنا وهناك. يقولون إنه استأجر قصراً في رأس بيروت وأنه سيبقى فيه حتى يشفى».

إبتسمت جدتي: «لم يستأجر. وليس قصراً. لقد اشترى سراي عبد الله باشا».

الآن كان وجه سلمى يشبه وجه أم لا تفهم عبارات إبنتها. وضحكت جدتي وكانت تقول: «حسناً، سراي كالقصر، كما تريدين». بعد ذلك صمتتا. وكانت مجموعتهنّ قد إكتملت، فتأهبن للسير في طريقهن المعتادة ـ الطريق التي شقّها فرتوني بورتاليس قبل أكثر من نصف قرن، فكانت أول طريق فرعية شُقت من طريق الشام ـ بيروت الرئيسية.

وتحركت سلمى وتبعتها جدتي. وكان سرب السنونو يقوم بدورة سريعة فوق الكرخانة مجذوباً إليها بالرائحة القوية لبقايا دود القزّ. وظهرت ثلاثة ظلال عند أول الطريق وكانت قادمة من جهة بتاتر، فوقفت سلمى وتبادلت الإبتسامات مع العاملات. وكانت جدتي تنظر إلى السماء.

بانت الظلال بوضوح. كانوا ثلاثة شبان. وبينهم كان هناك إثنان يتشابهان كتوأمين. وسلمى عرفتهما فوراً: إنهما الأخوان بابازواغلي. البلدة كلها تعرفهما، وتعرف الثالث الذي يسير معهما: إنه سليم حداد ـ إبن الإسكافي. وتراجعت سلمى إلى الخلف خطوة؛ ووضعت يدها على كتف جدتي، وقالت لها «انظري».

نظرت جدتي. القصير بين الثلاثة كان ينظر إلى السماء، فلم

تقدر أن تبصر وجهه جيداً. الإثنان الآخران كانا ينظران في إتجاهها. تدريجياً بانت ملامح أحد الوجهين. إنه شديد السمرة والنحول. وهو يمشي في المقدمة. فكرت أنها رأته فيما مضى. وهمست لها سلمى: «إبن الإسكافي». وهزت جدتي رأسها: «صحيح».

وفجأة رأت وجه الماشي وراءه. إستمر الأمر ثواني قصيرة. وكان الشبان الثلاثة يتابعون خطاهم الآن، فيبتعدون متحوّلين إلى ثلاثة ظلال مرة أخرى. وإلتفتت سلمى لأن جدتي شهقت، وكان وجه جدتي شاحباً، وكانت تهمس إنه أنطون.

(لكنه ليس أنطون)

أجلستها سلمى على صخرة قريبة، وسألتها ما الأمر، وسألتها ماذا رأت، وسألتها هل هي بخير.

ـ وجهه أصفر مثل أنطون. وعيناه. . .

قالت سلمى لجدتي إنها لا تفهم ماذا تقول.

تابعت جدتي همسها، وكان وجهها يشفّ ويرقّ، والضوء البرتقالي للمغيب ينعكس في عينيها وعلى حواف جسمها. وكانت هناك نسائم باردة تبعثر كلماتها صوب الحقول.

ـ وعيناه زرقاوان كالسماء. كأنطون. لكنه ليس أنطون.

ولم تكن تعرف من هو. وكان ذلك جوزف بابازواغلي. وبعد يومين ذهب إلى البيت حيث تقطن مع أمها. وقال لها إنه يريد أن يتزوجها.

وجدتي أجابت أنها كانت تنتظره.

وبعد أيام جاء وأخبرها أنه سيزرع حقل الوادي قمحاً، وأنهما سيتمكنان من الزواج مباشرة بعد الحصاد.

وكانت جدتي إبنة الخمسة عشرة تبتسم، وقالت له إنها تساعد أمها على خياطة ثوب الزفاف.

مضت الأيام. نضجت السنابل. جاء الجراد. «الثلاثة» كانوا على الطريق عائدين إلى البلدة من عاليه. وكان العجوز سهيل بابازواغلي وحده في حقل الوادي. حاول إبعاد الجراد بقصبة طويلة. كان الجراد ينهمر فوقه كالمطر وسقط أرضاً. وعندما وجدوه كان قد فارق الحياة. والسنابل الطويلة كانت مكسورة ومبعثرة في الأنحاء. وفوقها الحشرات.

الجراد أكل الأخضر واليابس. وبعضه مات جوعاً. قال جوزف لأخيه: تعال نسافر إلى إفريقيا.

قال جورجي: وزهية؟

بقي جوزف صامتاً. هزّ جورجي رأسه، وكان يفكر بسليم.

ذهب جوزف كي يخبر جدتي.

قالت له: إذا تركتني وذهبت سوف أموت.

قال لها: لديك أمك. لن تموتي.

قالت له: لا تذهب.

قال لها: يجب أن أذهب. لا أقدر أن أبقى هنا.

قالت له: لأن جدك مات؟

قال لها: ولأن جدي مات.

غادر دون أن يلقي التحية على الأم المشلولة التي كانت جالسةً على كرسيها تخيط ظهر ثوب الزفاف.

سافر الأخوان بابازواغلي. البلاد كلّها ما تزال جائعة. القمح وصل إلى المخازن. لكن أين القروش؟ جاء سليم حداد لزيارة جدتي حاملاً سلة بيض.

قالت جدتي إنه كان رقيقاً كفتاة آنذاك.

وكان أحياناً يجلب لهما الفاكهة. وذات يوم جاء متأبطاً حذاءً نسائياً أسود اللون. وقال إنه صنعه بيديه. وكان الحذاء لجدتي. وإنتعلته ومشت حول الغرفة ووقفت في الزاوية حيث مات أنطون ثم أبوها. وكانت أمها تتأملها وتبتسم. وكانت أصابع يدها اليمنى ما تزال تؤلمها من الشغل بالصنارة.

خرجت جدتي معه وجلسا قرب شجرة يابسة. كانت السماء صافية والشمس توشك على الغياب. ووجدت جدتي نفسها تخبره عن أخيها أنطون وعن أبيها وعن بورتاليس.

حين توقفت عن الكلام طلب منها أن تتزوجه.

ـ وجوزف؟ قالت. وكانت تبدو مذعورة كأنها تغرق.

أجابها سليم حداد: تعرفين أنه لن يعود.

وكانت ترتجف وهمست أنها متعبة. وأحاطها سليم بذراعه وسألها بماذا تفكر.

ـ إنه يشبه أنطون. قالت. وكان صوتها يبدو قادماً من مكان بعيد وغير موجهٍ إلى شخصٍ بعينه. فكأنها تهمس في منام لن تستيقظ منه.

وقال لها الشاب الذي سيصبح جدي إنه يفهمها جيداً، وقال إنه هو أيضاً يحب جوزف.

ثم تابع بصوت هادىء: لكن جوزف ليس أنطون.

وهكذا عادت الأم المشلولة إلى الشغل بالصنارة. وتقرر دعوة بروسبر بورتاليس إلى حفل الزواج.

(الرؤية في الظلام)

في الليلة التي سبقت الزواج وضعت والدة جدتي اللمسات الأخيرة على ثوب الزفاف ثم أطفأت القنديل المعلق إلى الجدار واستسلمت لنوم عميق. أما جدتي فظلت تتقلب فوق «الفرشة» الرقيقة المحشوة بورق القصب إلى أن طلع الفجر. وعندئذ فقط تمكنت من النوم.

في المنام رأت أنها دودة حرير. وكانت تلف الشرنقة حول نفسها سعيدة. وكانت تفكر أنها قد نجت من الموت، وأنها نجحت، وأنها ستتحول إلى فراشة بعد قليل. بلى، كان الخيط المتين والنحيل يلتف ناعماً حولها. ورويداً رويداً تلاشى الضوء ولم يعد البرد يؤذي بشرتها. واضمحلت روائح الخارج. ولم تعد تشم شيئاً. لا ورق التوت ولا الناس ولا الهواء. وفكرت أنها أخيراً لم تعد تحتاج شيئاً من العالم. لا الدفء، ولا الضوء، ولا الطعام، ولا الآخرين. فقط تتحول إلى فراشة وتعيش على الماء الصافي والحب.

لكن، الحب؟

وأحست بألم في قدميها. وإنساب الألم صعوداً في جسمها. وتذكرت كلام أستاذها بورتاليس عن داء التيبس.

وإنتابها الفزع. كان صوته يشبه التحذير. هل أصابها مرض التيبس؟ هل سيتحول لونها تدريجياً إلى أحمر خمري ثم تتيبس بدءاً من أقدامها وتموت في أقل من أربع وعشرين ساعة؟ هل ستموت قبل أن تتحول إلى زيز، أم أنها ستموت بعد ذلك؟ وما الفرق؟ هي تريد أن تصبح فراشة والمرض لن يسمح لها بهذا.

وستمتد يدٌ وتحمل شرنقتها وتزنها فتجدها خفيفة. خفيفة لأن الدودة ماتت بعد أن نسجت شرنقة كاملة. والآن إنتهى كل شيء. المرض أنهى كل شيء.

وكانت جدتي تتقلب فوق الفراش وأحسّت أن أمعاءها ستخرج منها وتسيل على الفرشة والأرض. ثم غفت مجدداً ووجدت نفسها داخل الشرنقة مرة أخرى. وكانت تذبل ورأت أن البقع الرمادية تغطي جسمها، وأنها ترتخي، وأن لونها يتحول إلى أسود كالح. وسمعت طنين الذباب. بورتاليس أخبرها عن هذه الأعراض. باستور إكتشف أن هذا المرض وراثي. وسببه ميكروبات تعيش في الأمعاء. وإسمه مرض الذبول، أو المرض الأصفر، ويزيد في إنتشاره هبوط وإرتفاع الحرارة بصورة مباغتة. وهو يُكافح عبر تطهير مكان الحضانة.

هل سأموت؟

كان لونها أسود الآن وفاحت منها رائحة كريهة. وقالت إن الذباب يطنّ فوق شرنقتها لأنها مريضة ورأت سائلاً أسود لزجاً ينضح من شرنقتها البيضاء المكتملة. وتلونت الشرنقة بالسائل. وعرفت جدتي أنها ستموت.

في تلك اللحظة استيقظت. كان الضوء يدخل عبر كوّة

الجدار وكانت أمها تعد القهوة. لا ذباب في الغرفة. ولا روائح إلاّ رائحة القهوة التي تفتح القلب. وفكرت جدتي أنها رأت أمها مراراً خلال السنوات الماضية تذيب الكلس في سطل الحديد وتشطف الزاوية حيث مات أنطون ثم أبوها. وقالت إنها ستكون بخير.

وعند الظهيرة وصل بورتاليس فتنحى بها جانباً وسألها هل تحتاج شيئاً.

ـ هل تبارك زواجي هذا؟ سألت.

فإبتسم لها: «كنت سأقول لك إن الربّ هو المسؤول عن هذه الأشياء. لكنك تعرفين إيماني الضعيف. حسناً، سأعقد معك اتفاقية. البارحة، في بيروت، كتبت وصيتي. وفيها أنني أريد دفناً غير مسيحي. فأنا أريد أن أدفن بثيابي هذه. ولا أريد من أحد أن يغسلني أو يلمسني. لكن هناك مسألة العينين. فقد أموت مفتوح العينين وعندئذ يتوجب أن يغمضهما لي شخص ما. إني فقط أطلب منك هذه الخدمة. وفي المقابل سأبارك زواجك».

بعد أكثر من نصف قرن سألتُ جدتي لماذا أراد بورتاليس أن يُدفن مغمض العينين. كان سؤالي نوعاً من المداعبة. فهو يريد فقط أن تكون حاضرة وأن تلمسه للمرة الأخيرة ـ كنت أفكر. ثم إن كل الناس يدفنون مغمضي الأعين.

لكن جدتي فاجأتني بهذا الجواب: ربما كان يحسب أنه بذلك قد يتمكن من رؤية فراشته أخيراً.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتها.

ـ أحياناً لا نرى الأشياء إلاً عندما نغمض أعيننا. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟

فإبتسمت وقلت لها إنني قرأته ذات مرة. وحاولت أن أتذكر متى قرأته وأين، وهل كانت جدتي قربي، وهل أخبرتها عنه. ونظرت إليها وكان وجهها حزيناً. فعرفت أنها لا تداعبني. وكان الشرود يأخذها بعيداً. ورأيت عظام وجنتيها البارزة، وفكرت أنها دقيقة كعظام الطيور.

وفكرت بأجوبتها مرة أخرى، وفي هذه المرة فهمت أشياء مختلفة تماماً. ووجدتني أبتسم.

آنذاك كنت ما أزال في الصف الثاني الثانوي.

(موسيقى)

فيما بعد، نزلت إلى الجامعة. وكان عليّ أن أنتظر حتى أراها، فأطاردها، فتختفي، فأغمض عينيّ وأتجمد هناك كالتمثال. عن يميني الكنيسة الأرثوذكسية. عن يساري المبنى الأصفر القديم الذي يضم الطابق الثالث منه مركز حركة الشبيبة الأرثوذكسية. خلفي مربعات ضوء مرسومة على الإسفلت. وأمامي. . .

أمامي لا شيء. لأني أغلق عينيّ. لا أجراس كنائس تقرع لأن الوقت ليل. فقط أنتظر. ألتف بشرنقتي وأنتظر واقفاً في العتمة.

لا بدّ أن تعود.

بقيت هناك قرابة العشرين دقيقة ثم فتحت عينيّ ومشيت. طوال فترة وقوفي هناك لم تعبر السيارات الزقاق. لكن هذا الزقاق مليء بالمطاعم والمقاهي الليلية، ولافتاتها جميعها مضاءة، وهناك سيارات مركونة أمامها، فكيف لم تعبر سيارات قربي؟

وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني لم أكن قد لاحظت وجود هذه المقاهي والمطاعم كلّها فيما أغمض عينيّ وأنتظر.

ومشيت نحو شارع جاندارك ماضياً كي أنام. وكنت أفكر بجدتي وتخيلت أنها ما تزال على قيد الحياة، وتخيلتني أخبرها بما جرى لي قبل لحظات.

عن يميني شارع متفرع يصل إلى قبالة فندق نابليون. دخلته لأنني رأيت زحمة في آخره. كان الوقت متأخراً وكانت الزحمة غريبة. ثم تبينت صوت موسيقى صاخبة وأدركت أن هناك في هذا العالم من يحتفل بعيد ميلاد أو بذكرى زواج أو...

وفجأة، ماذا أرى؟

كانوا يدخلون إلى بناية وكانت هي بينهم. وكانوا يحملون باقات زهور. وبعضهم كان يحمل علباً ملفوفة بأوراق الهدايا وبالشرائط الملونة. ورأيت واحدة تحمل قفصاً. أما هي فلم تكن تحمل شيئاً. وقلت لنفسي إنها فرصتي الأخيرة وأسرعت صوب المدخل.

لم أجد مصعداً. لكن الدرج كان مضاءً بشريط من اللمبات. وتسلقت الدرج حتى الطابق الثالث، الباب مفتوح على مدخل واسع وفارغ لكن الصوت كان يأتي من الداخل. وتأكدت حين

رأيت شريط اللمبات لا يتابع طريقه صعوداً إلى الطابق الرابع. وتقدمت نحو الباب.

كان المدخل مربع الشكل. وقفت وسطه ونظرت إلى حذائي المتسخ. عن يميني ممر طويل. وعن يساري ممر طويل. في لحظة أفكر أن الصوت يأتي من هذه الجهة. وفي اللحظة التالية أحسب أنه قادم من الجهة الأخرى.

والآن ما العمل؟

أغمضت عينيّ. كان ريقي مرّاً. وحنجرتي تؤلمني. واكتشفت أن ثيابي مبللة وأن ملابسي الداخلية قد التصقت بجسمي. وفكرت أنني سوف أمرض. وفي تلك اللحظة سمعت صوتها للمرة الأولى.

فتحت عينيّ وكنت أعرف أنه صوتها. ولم يكن قادماً من اليمين أو اليسار. وكانت واقفةً أمامي وعرفت أنني قد وصلت.

ـ أنا أخت أسامة. قالت لي وهي تمد يدها لتصافحني. وقلت لها إسمي وصافحتها.

ـ أنتَ معه في المدرسة؟ سألتني.

ـ صحيح. أجبتها كاذباً.

وصمتت برهة، فسألتها في أية مدرسة هي.

ضحكتْ: أنا في الجامعة.

ـ في أية جامعة؟ الأميركية؟

ـ لا.

ـ اليسوعية؟

ـ لا.

ـ اللبنانية؟

ـ لا.

وابتسمت لها، وكان صوتها الناعم ما يزال يهمس في أذنيّ، وتخيلتها تردّد ذلك الحرف مراراً وتكراراً، ولم يكن يشبه أيّ «لا» سمعتها من قبل. وكنت أحدّق إلى أنفها الصغير. وقلت لنفسي إنها «لا» تشبه «نعم». وتخيلتنا نلعب معاً في حضانة للأطفال. ونسيت أنني أقف في المدخل.

ـ ألن تدخل؟ سألتني.

ـ إلى أين؟ سألتها.

ـ إلى الحفلة. قالت.

ـ أكره الحفلات. قلت.

وضحكَتْ وبقينا واقفين.

فيما بعد تكلمتْ فأخبرتني أنها تدرس في إنكلترا.

سألتها عن اسمها فأجابتني.

ـ أهلك يحبون حرف «السين» كثيراً. قلت لها.

الآن كان وجهها جامداً، وأحسست بالخوف.

ـ أنت لا تعرف أسامة. قالت لي.

وأطلقتُ ضحكة قصيرة، وحاولت أن أتماسك ولم أنجح. ووجدتني أقول لها إنني لا أعرف أحداً في هذا العالم وإنني لا أريد أن أعرف أحداً.

وخرجتُ وأخذت أهبط الدرج.

«وخرجت وأخذت أهبط الدرج...».

أقرأ الجملة الأخيرة فلا أعرف ماذا سأكتب بعدها. وأحس بألم في صدري وأفكر أن عليّ أن أرمي القلم من يدي وأن أمضي إلى السرير.

أنظر إلى الحائط وأتساءل لماذا كتبت هذه الأشياء عن الزحمة الغريبة والبناية وعيد ميلاد هذا المدعو أسامة، ولماذا أخترع هذه القصص؟

وأقول إنني سأستيقظ في الصباح الباكر وأكتب الحقيقة فحسب. وسأكتب لساعتين فقط ثم أرتب أغراضي وأصعد إلى الجبل لأن الحرّ لم يعد يطاق. ولأن عقصات البرغش باتت مسمومة ولئيمة.

بلى، غداً سأكتب الحقيقة: تلك الفتاة، تلك المرأة التي رأيتها ذات ليلة تمشي على رصيف شارع بلس ولحقت بها في العتمة ثم أضعتها وسط شارع المكحول، تلك المرأة لم أرَها بعد تلك الليلة أبداً. وهي ليست «س.».

لكني حين إلتقيت «س.» تذكرت تلك المرأة فأخبرت «س.» الحكاية. ووصفت لها كيف وقفت وسط شارع المكحول كالتمثال ثم ذهبت إلى شقتي وتمددت في الفراش مبلّلاً وحين استيقظت في النهار التالي كنت مصاباً بالرشح. و «س.» سألتني هل وقفت وسط الشارع مغمض العينين كالتمثال حقاً أم أنني أبالغ؟

فأجبتها أنها تقدر أن تصدق ما تريد.

وعندئذ قالت لي: «أتمنى فقط لو كنت أنا تلك التي طاردتها».

وكانت تلك ثالث مرة أتحدث فيها مع «س.». ومنذ ذلك اليوم باتت كأنها تحت جلدي. وكلما فكرت بها وجدتني أفكر بتلك الليلة، وبالشوارع المبللة، وبالمرأة ذات المعطف الرمادي الطويل التي سحبتني خلفها من «بلس» إلى «المكحول» كي تختفي في العتمة وتتركني وحيداً كبيت مهجور.

وبقيت مهجوراً حتى جاءت «س.». وعندما جاءت عرفتُ أنني سأكون دائماً بيتها. وأخذتها معي إلى البلدة، وكان الوقت خريفاً. وصعدت أمامها إلى غرفة جدتي وفتحت لها ستائر النافذة وطلبت منها أن تنظر إلى النزل القديم.

ـ ما هذا؟ سألتني.

ـ إنه نزل مهجور. قلت لها.

وبانت الشمس فجأة، فانعكس شعاعها على زجاج النوافذ الثلاث الطويلة التي تعلو شرفة الطابق الثالث. ثم أخفتها الغيوم مرة أخرى، وهبطت الظلال الرمادية فوق الطريق.

ـ 3 ـ

إني أجلس في غرفة جدتي. عبر زجاج النافذة أرى الضباب يخرج من وراء النزل الكالح الجدران، ويدنو زاحفاً فوق الطريق المغطاة بالأوراق الحمراء. إلى يمين النزل تقف ثلاث شجرات كرز صغيرة. قرب هذه الشجرات، تنعطف الطريق إلى خارج البلدة، وهي تمتد مستقيمة كسهم، بمحاذاة صف طويل من أشجار السرو.

والآن تتمايل رؤوس الأشجار فأسمع صوت الرياح وأرى العاصفة التي تقترب. دائماً تأتي عواصف الخريف إلى بلدتنا من جهة الوادي. غيوم داكنة وثقيلة تمكث للحظات فوق الغابة، ثم تسبح مع تيار الهواء، فتتجاوز النزل وأشجار الكرز، وتستقر معلقة في فضاء البلدة. كأنها تريد أن تمطر فوق بلدتنا وحسب.

منذ ثلاثة أشهر لم أكتب شيئاً. فقط أتسكع في الجوار. وحين أتعب من المشي أصعد إلى هنا، فأرتمي على الكرسي الهزاز خاصة جدتي، وأنظر عبر النافذة. أحياناً يحلق سرب من الحمام فوق سطح النزل، وتنزل حمامة أو إثنتان، فتغطان على الدرابزين الحجري لشرفة الطابق الثالث. أحشو الغليون وأشعله،

وأراقب الحمامة الأولى تتقافز خلف الحمامة الثانية، وأحسّ بالنعاس.

الضوء يتلاشى. إنه المساء. والضباب يغطي بيوت البلدة. فقط سطح النزل ما يزال ظاهراً في العتمة الشفافة. لكنه سيختفي بعد قليل.

في مساء يشبه هذا المساء تمددت إلى جانب «س.» للمرة الأولى. وهنا، على السرير النحاسي العالي الذي يتوسط غرفة جدتي، قالت لي إنها تريد أن تبقى معي دائماً.

دائماً؟ بلى، هكذا قالت آنذاك.

الآن يجب أن أنزل إلى الطابق التحتاني كي أشعل الوجاق وأصنع لنفسي بعض الشاي.

وبعد ذلك؟ بعد ذلك أملأ الكوب الكبير، وأبتسم لنفسي، وأجلس خلف طاولة الطعام، وأعود إلى روايتي.

فأنا، طوال الثلاثة الأشهر الماضية، لم أفعل شيئاً سوى إنتظار هذه اللحظة.

(ولادتي)

وُلدت عند المساء. خلال الخريف. قالوا إنني كنت أصرخ كالمجنون دون أن أبكي. جدتي أرادت أن تسميني أنطون. أمي لم تقبل. خالة من خالاتي، لا أعرف من بالضبط، اقترحت أن يسموني سليم. لكن أبي حسم الموقف، فأطلق عليّ إسم «نور» على سبيل الدعابة.

بعد مرور تسعة عشر عاماً عثرت بالصدفة في أرشيف صحيفة «لسان الحال» الموجود في الجامعة الأميركية على الخبر التالي: «اليوم وُجد أنطون عبود من أهالي الجبل القاطنين في بيروت مقتولاً في دكانه وظُن أن قتله جرى منذ 3 أيام. الدكان كانت مقفولة فأنتنت جثته وقيل إن قاتليه رجال من أهالي الجبل قتلوه أخذاً بثأر قديم لهم عليهِ وقد أخذت الحكومة بالبحث عنهم». (الإثنين 12 تشرين الثاني عام 1877).

الإحساس الذي إنتابني، عقب قراءة تلك الكلمات المرسومة على الشاشة الخاصة بآلة الميكروفيلم، كان شديد الوطأة. فجأة بدا لي أن العالم كلّه مزيف. كأن حياتي هي خدعة. كأن جدتي هي كذبة. كأن أنطون الصغير الذي أسموه على اسم جدّه المقتول في بيروت لم يولد قط. كأن بلدتنا بلدة خيالية. كأن غرفة الميكروفيلم ليست موجودة داخل حرم الجامعة بل فوق سطح القمر. كأن الجامعة ذاتها هي غير حقيقية. واستمر ذلك الإحساس للحظات معدودة. فكأن كل شيء مزيف، ولا شيء حقيقي إلاً هذا الإحساس الذي يستولي عليّ بسبب من هذه الكلمات المنشورة في صحيفة من القرن الماضي، كانت تصدر عند المساء، وتباع بقرش واحد فقط. ثم، فجأة، سمعت طرقة في الغرفة المجاورة، فإنتبهت من شرودي، وعاد العالم ليوجد. وضعت ورقة أمامي ونسخت الخبر فوقها، وكنت فقط أتمنى لو أن الخرف لم يصب جدتي بعد. وخلال الأيام التالية طلبت من صديق لي أن يناديني بإسم «أنطون».

ذلك الصديق كان يشاركني الغرفة رقم 623 في بناية

«البنروز» الخاصة بطلاب الداخلي. إبتسم ثم قال: هل ضجرت من «جوزف»؟

(حياة وموت جوزف بابازواغلي)

ذات مرة رأيت، في المنام، أنني أتمدد على سرير في مصح خاص بالمسلولين. وكان هناك معطف أخضر معلقٌ من مشجب إلى يميني، وكانت الشمس تغيب وراء نافذة مستطيلة، فعرفت أنني جوزف بابازواغلي. وفي اللحظة التالية إستيقظت، وكان عليّ أن أهرع إلى الحمام وأغسل وجهي مرتين، فيما أحدّق إلى المرآة، كي أتأكد أنني أنا، وأنني لست جوزف بابازواغلي.

عاد جورجي بابازواغلي إلى بلدتنا وحيداً بعد ثلاث وثلاثين سنة من الغياب. كان يرتدي معطفاً أخضر طويلاً ويحمل حقيبتين ثقيلتين. وقف للحظة عند مدخل البلدة ونظر إلى الكوخ المتهدم. فتش عن شجرة التين الكبيرة فلم يجدها. مشى على الطريق الترابية حتى وصل إلى بيت جدي. وضع الحقيبتين على الأرض ثم طرق الباب الخشبي السميك بقبضة يده اليسرى. فوقه، وسط السماء، كان قرص الشمس الذهبي يتوهج. وحين فتحت خالتي الكبرى الباب سقط الضوء الأبيض القوي فوق ثوبها الأزرق، وأنار خصلات شعرها الصفراء كسنابل قمح ناضجة. وللوهلة الأولى فكر جورجي بابازواغلي أنها جدتي زهية، وأن الزمن كان متوقفاً في بلدتنا طوال فترة غيابه، مع أخيه جوزف، وراء البحار.

في تلك الأيام كان البيت ما يزال مكوّناً من طابق واحد. وفوق السطح كانت هناك تعريشة من العنب الأبيض. وخلال الأيام التي تلت عودة جورجي بابازواغلي إنصرف جدي إلى مساعدة صديقه، العائد، على الإستقرار في البلدة. ففي اليوم الأول بنى له خيمة صغيرة فوق السطح وثبّت سلماً خشبياً طويلاً خلف البيت بحيث يتاح لجورجي الصعود والهبوط كما يشاء. وفي اليوم الثاني أهداه حذاء صنعه في الأصل لنفسه. وفي اليوم الثالث مضى معه إلى بيت بطرس بخعازي كي يشتري جورجي الأراضي المحيطة بالكوخ المتهدم. وفي اليوم الرابع ذهب معه إلى عاليه. وفي اليوم الخامس سهر معه حتى الفجر. وكان ضوء القمر يدخل عبر أوراق التعريشة ويضيء السطح. فتبادلا الأخبار واستعادا الماضي وأدركا، كل على حدة، أن السنوات قد مرّت حقاً، وأن كل شيء قد تبدل، وأن ما كان ذات مرة هو أمر ولّى إلى الأبد وغير قابل للعودة إطلاقاً، إلاّ إذا خرج الموتى من قبورهم. وحتى في هذه الحالة، فالأشياء لن تعود إلى ما كانت عليه فيما مضى. لأن هذه هي الحياة.

- إنها الأشياء. قال جورجي.

- هذه هي الحياة. قال جدي.

وكان الصمت يغطي البلدة، والكلمات التي ماتت تعود وتتكرر في داخل كل منهما. جدي يفكر بجوزف وبالأخبار التي رواها جورجي. وجورجي يفكر بأمه التي ماتت وبما أخبره إيّاه جدي. وكان القمر ما يزال في السماء، وأخذ ضوء الفجر الشاحب يقوى رويداً رويداً. وتحتهما، في البيت، كانت جدتي

تنام بين بناتها الأربع وهي تضغط على بطنها وتخرج من رئتيها أنفاساً ثقيلة.

كان ضوء القمر يتلاشى، وتحول القرص الأبيض المدوّر إلى وجهٍ ميتٍ لا نور فيه، ولا ضياء ينبعث منه. وغطّت أشعة الشمس الصباحية السماء البيضاء الفسيحة وسكن الهواء الرطب للحظة، وكان صياح الديكة يتعالى من جهات البلدة الأربع. وسمعا أصوات نوافذ تفتح وسمعا أصوات نساء. كانت البلدة تستيقظ. وتحتهما، بدأت الحركة. وكان بمقدور جدي أن يتخيل امرأته وهي تقوم واقفة وتطوي الفرشة والبطانيات وتبعدها نحو الزاوية ثم تمضي لإعداد القهوة.

ليلة طالت ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، لكنها انتهت الآن. وجدي قال لنفسه إنه لم يعد الرجل الذي كانه قبل غروب شمس النهار الفائت. وتساءل هل إنتبه جورجي، وقال إنه على أغلب الظن قد إنتبه.

لكن ما الذي حصل لجدي في تلك الليلة؟

في تلك الليلة حكى جورجي لجدي عن كل شيء. قبل أن يبدأ الكلام وصف له جدي موت أمه، أم جوزف. قال إنها عاشت وحدها في ذلك الكوخ قرابة العشر سنوات. ثم ذات شتاء وجدوها في الحمام القائم قرب الشجرة، والمصنوع سقفه من الأغصان والقصب. ووجدوها مدفونة بالثلج. فالسقف وقع عليها لأن الثلج كان قد تكدس فوقه خلال الليل.

وتذكر جورجي أن أمّه عانت دائماً من الإسهال الصباحي. وأن جده كان يضحك ويقول لها: «على الأقل هذا مرض غير مميت».

وقال جدي إن شجرة التين اليابسة سقطت فوق الكوخ خلال الشتاء الذي أعقب موت أم جوزف. وأن الناس قاموا بتقطيع أغصانها وجذوعها كي يستخدموها حطباً. لكنها حتى للحطب لم تنفع. لأن السوس كان معششاً فيها. فكانت الأغصان ما إن ترمى في النار حتى تتقصف وتتحوّل رماداً لأن الحشرات جوّفت داخلها تماماً.

وقال جدي: «رائحة السوس المحترق ذكّرت الجميع بأيام الكرخانة».

سأله جورجي عن بروسبر بورتاليس، الفرنساوي صاحب الكرخانات في بتاتر.

قال جدي إنه مات غرقاً قبل سنوات. قبل أن تقفل الكرخانة. قبل هبوط أسعار الحرير. قبل أن تزول بساتين التوت من الجبل. قبل أن تبدأ الهجرة الواسعة إلى أميركا وإلى أفريقيا.

سأله جورجي: وأنت؟

قال جدي: أنا أصنع الأحذية. الناس تحتاج الأحذية كي تمشي، أليس كذلك؟ هبطت أسعار الحرير أم ارتفعت، ما الفرق؟ ثم إنني كنت أعمل في الجيش الفرنساوي.

ـ حقاً؟ ماذا كنت تعمل؟

ـ أصنع أحذية للجنود. وللضباط. السنغاليين والفرنسيين. ويدفعون لي راتباً وأقبض «براني» أيضاً.

عندئذ لم يكن الوقت قد تجاوز منتصف الليل بعد، وجدي ما يزال يحسّ بالراحة فوق سطح بيته الصغير، وسط البلدة حيث وُلد ثم تزوج ثم عاش، وما يزال يعيش. لكن منذ اللحظة، التي بدأ فيها جورجي حكايته عن حياة وموت جوزف بابازواغلي، استدارت سوسة صغيرة تحت أضلاع جدي، وأخذت تنخر صدره من رأس معدته حتى حنجرته، ففقد الأمان الذي كان يملؤه، وإستعاد أرق تلك الليالي التي سبقت زواجه من جدتي.

قال جورجي ـ بعد أن أشعل السيجارة التي لفّها فوق فخذه برشاقة ومهارة تشابهان رشاقة ومهارة المرحوم جدّه:

ـ «الباخرة التي ركبناها من بيروت إلى بورسعيد كانت تابعة لشركة بواخر المساجيري. وكان على متنها بحارة إنكليز ولبنانيون ومصريون. جوزف وأنا كنا قد دفعنا عن الواحد منا 3 ليرات مصرية للركوب في الدرجة الثالثة. هذا عدا ما دفعناه للوسيط صاحب خان عاليه طبعاً. المهم في الدرجة الثالثة، كما في الأولى والثانية، كانوا يقدمون لنا وجبة طعام كل يوم. كان معنا أيضاً ركاب في الدرجة الرابعة. وهؤلاء يدفعون ليرة ونصف الليرة فقط لكنهم يبقون دون طعام، ومعظمهم مصابون بداء الجرب ويمنع اختلاطهم بركاب الدرجات الأخرى. والذين في الدرجة الأولى كانوا يدفعون 8 ليرات. أخبرك هذا كي تعرف أنني طوال هذه السنوات كان كل شيء يدخل إلى رأسي فلا يخرج منه بعد ذلك أبداً.

لم تكن الرحلة صعبة. أنا تقيأت في البداية. جوزف لا.

خلال أربعة أيام وصلنا إلى بورسعيد. البحارة أخبرونا أنهم عادة يصلون في ثلاثة أيام فقط. لكن في بداية الخريف تتحرك التيارات البحرية من الغرب إلى الشرق.

وهذه الحركة أبطأت من إندفاع السفينة ـ سفينتنا. المهم وصلنا إلى بورسعيد، ونزلنا إلى اليابسة».

ـ لم أفهم ما قلته عن التيارات البحرية، قال جدي.

«التيارات البحرية هي حركة البحر. في الخريف تدخل كميات هائلة من مياه المحيط الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط عبر مضيق جبل طارق، وهذه الكميات يدفعها هواء قوي أو رياح تهب تحت سطح الماء. غداً أشرح لك ذلك على الخريطة. لقد جلبت معي الكثير من الخرائط».

وفكر جدي أنه يعرف البحر، لأنه قبل أن يصعد مع الجيش الفرنساوي إلى السويداء في حوران، عمل لفترة في ثكنة فرنسية في بيروت. وكان أحياناً يتجول في الأسواق ويمضي حتى رصيف الميناء فيتأمل البحر الأزرق الكبير طويلاً ويتذكر الأخوين بابازواغلي، ويتذكر جدهما العجوز. كان ذلك في عام 1920، بعد سنتين أو ثلاث على سفر جوزف وجورجي، وكان الجنرال غورو يتأهب لإعلان دولة لبنان الكبير. ففي تلك السنة طلب منه الضابط المسؤول عن العمال أن يتحضر للسفر مع الفرقة الرابعة إلى السويداء لأنهم بحاجة إلى إسكافي جيد برفقتهم، وقال إن هذا التدبير سيكون مؤقتاً ولن يطول أكثر من سنة ثم يعود إلى بيروت وربما استطاعوا نقله إلى أحد مراكزهم في الجرد الشمالي فيصبح قرب عائلته. أجاب جدي إنه على استعداد دائم لتنفيذ

الأوامر. فابتسم الضابط له وأخبره أنه هو أيضاً سيسافر مع الفرقة وأنه يريده معهم لأنه يعتبره أشطر وأهم إسكافي في العالم. وخلال الرحلة بالقطار الحديدي إلى الشام تساقطت ثلوج كثيفة وغطّت السكّة عند ظهر البيدر وكاد القطار أن ينقلب على جنبه. لكنهم في النهاية وصلوا إلى الشام. وفي السويداء بات اسم جدي على كل شفة ولسان. كان يبيع الصباط، الذي يصنعه، بليرة ذهبية. ثم صار يبيعه بثلاث ليرات ذهبية. وهذه الصبابيط كانت تباع لضباط من الفرق الأخرى. أما فرقته فكان تقدم له راتباً يومياً. واشتهر الحذاء الذي يصنعه لأنه متين وخفيف في القدم، ولأن الهواء يدخل عبره في الصيف، أما المياه فلا تتسرب إلى داخله في الشتاء. وصاروا يقولون «صباط الحدّاد» لأن جدي من عائلة حدّاد.

وفكر جدي بكل ذلك وتذكر البحر الأزرق الكبير مرة أخرى. وقال إنه يعرفه. وحاول أن يتخيل الخرائط التي سيتفرج عليها مع جورجي في الغد. وكان قد رأى خريطة، لمرة يتيمة وحسب، بحوزة أحد الضباط. لكن الضابط أخبره أنها خريطة عسكرية وسرية وممنوع النظر إليها. تُرى، هل يملك جورجي مثلها؟

ـ «نزلنا في مرفأ بورسعيد وكنت بأحسن حال. لكن فجأة أحسست بألم فظيع في صدري».

قال جورجي إن المرض هو الذي بدأ كل شيء. ففور نزولهما إلى اليابسة أصيب جورجي بنزلة برد حادة والتهبت قصبته الهوائية. ربما لأنه فتح فجأة أزرار المعطف السميك فضربه الهواء

البارد على صدره. بلى، المعطف الأخضر الذي ظلّ معه طوال تلك السنوات. ومع جوزف أيضاً.

والمرض الذي أصاب جورجي أجبر جوزف على حمله إلى المستشفى الإنكليزي فوراً، وبالتالي إلى إنفاق جميع الليرات التي كانت بحوزتهما. فمرض جورجي طال حتى كاد أن يقتله.

وفكّر جدي أنه هو أيضاً عرف المرض. مرضه ومرض زوجته زهية ومرض البنات. البنت الأولى جاءت بعد سنة واحدة من الزواج. خلال الأشهر الأولى من زواجه بزهية لم تسمح له بالنوم معها. فقط تبكي وترتجف. وأصابتها الحمّى. فيما بعد شفيت وقالت له تعال. والبنت الأولى، لميا، ولدت مريضة لكنها شفيت أيضاً. وبعد لميا بسنوات كرّت سبحة البنات. لميا الآن تسكن معهم لأن زوجها مسافر في البرازيل. والثانية، التي تصغرها بعشرة أعوام ستتزوج بعد شهر أو شهرين. عشرة أعوام؟ بلى، بعد الولادة الأولى إلتهب رحم جدتي ولولا الدكتور الذي أرسله بورتاليس من بيروت لعلاجها لكانت. . . أما البنت الثالثة فليست مستعدة للزواج إلاّ من رجل تختاره بنفسها، وعلى ما يبدو فهي قد اختارت وانتهت لكنها تنتظر الوقت المناسب لإعلان ذلك. أو هكذا تعتقد زهية. وفكّر جدي أنه عرف المرض. بلى، مرض الزواج والأولاد، ومرض الجلوس في القبو خلف طاولة الشغل طوال هذه السنوات. ومرض أكياس الهواء الموجعة في البطن من جراء الإنحناء على الأحذية طوال النهار. طوال النهارات، طوال السنوات، طوال العمر. العمر؟

(جملة إعتراضية)

مرة أخرى لا أنتبه. فتمتزج أفكاري بأفكار جدي. هذا واضح. لحظة أقول جدتي، ولحظة أقول زهية. «إلتهب رحم جدتي». ثم: «هكذا تعتقد زهية». تُرى، ما سبب ذلك؟ ربما الوجع في بطني. فأنا أيضاً أشكو من مرض الإسكافيين. فكما كان جدي ينحني فوق طاولة الشغل، المدروز سطحها بالمسامير الرفيعة، كي يلصق نعلاً أو يصلح كعب صباط، فكذلك أفعل أنا، في هذه اللحظة، حين أنحني على هذه الطاولة كي أكتب على الأوراق البيضاء أن جدي الإسكافي كان يشكو من وجع البطن لكثرة الوقت الذي كان يقضيه منحنياً فوق أحذيته.

(حكاية جورجي تتابع...)

قال جورجي إن الحظ الذي فاتهما سابقاً ـ موت الأب، موت الجد، الجراد الذي قضى على حقل القمح، نزلة البرد الحادة، الفاتورة الباهظة للعلاج في المستشفى الإنكليزي، ماذا بعد؟ ـ أظهر لهما أخيراً وجهه الآخر: طبيب في المستشفى، أصله شامي، سألهما عن صلة القرابة التي تربطهما بيونس بابازواغلي، رئيس قسم الترجمة في وزارة المالية.

طبعاً هما أجابا الطبيب أنهما لا يعرفان شيئاً عن الرجل المذكور. ذلك أن الجد سهيل بابازواغلي لم يخبرهما أبداً أشياء مهمة عن العائلة لأنه، كما اعتقدا، لا يعرف الكثير عنها أصلاً. فقط حكى لهما ـ والآن، بعد أربعين سنة يكرر جورجي تلك الحكايات كأنه الصدى ـ إن عائلة بابازواغلي هي تركية الأصل

وأن والده يوسف جاء من تركيا في مطلع القرن التاسع عشر، وكان عمله في إدارة القائمقاميتين، وبعد وصوله إلى لبنان بسنوات قليلة تزوج من إمرأة مسلمة. وبعد موت هذه المرأة بالطاعون تزوج إمرأة مسيحية من آل سرسق، ومن بطن هذه المرأة خرج صبي واحد هو سهيل، وسرعان ما ماتت ماري سرسق بابازواغلي وبعد موتها ظلّ سهيل يراها كل ليلة في المنام. ثم حصلت قصة الأسوارة، فتبرأ والده يوسف منه، ووضعه الجنود في السجن. وفي السجن صادق إبراهيم بخعازي. وذات مرة أخبره محكوم جديد أن يوسف بابازواغلي قد أصيب بالجنون وأنه يعيش وحيداً في بيت محاط بحديقة من أشجار الورد. وأنه أوصى أن تُعطى جميع أملاكه، بعد موته، إلى المرسلين الإنجيليين كي يتصرفوا بها. وأنه ترك دينه وتحوّل إلى الطائفة البروتستنتية، وأن مطران الروم الأرثوذكس في بيروت قال إن ذلك أمر طبيعي بالنسبة إلى شخص مجنون، إذ إن أساتذة الكلية الإنجيلية لعبوا بعقله حتى بات يحسب أن جده كان قرداً.

ـ قرد؟ سأل جدي، الذي كان يجهل هذه القصة الأخيرة عن المطران.

ـ صحيح، قال جورجي، إنها نظرية لعالم يدعى داروين. فهو يقول إننا جميعاً كنا قروداً قبل زمن بعيد، كما أن الفراشة كانت دودة قبل أن تصبح فراشة. وكما أن الدودة بدأت كجرثومة صغيرة تتغذى من اللحم المتعفن ثم صارت دودة.

ـ لكن الدودة بدأت من البيضة! قال جدي معترضاً.

ـ صحيح، لكنه يتحدث عن الدودة الأولى. ألم تلاحظ

كيف أن الدود يخرج من أحشاء البقرة الميتة؟ حسناً، لكن هل رأيت بيوضاً على الأحشاء قبل أن ترى الديدان؟ بالطبع لا. لأن الدودة كانت قبل البيضة.

ـ وما علاقة القرود؟ سأل جدي.

لم يفهم جدي حكاية القرود وداروين، وتابع جورجي كلامه.

قال جورجي إن ذلك الطبيب كان من أصدقاء يونس بابازواغلي المذكور، فذهب إليه وأخبره عن الأخوين القادمين من جبل لبنان لأنه كان يعرف أن صديقه يونس هو حفيد رجل جاء إلى مصر عند منتصف القرن التاسع عشر قادماً، مثلهما، من بيروت، وليس من تركيا.

وهكذا إكتشف الأخوان حكاية غريبة لم يحكها لهما الجد سهيل، ولن يعرفا أبداً هل كان على علم بها فأخفاها عنهما قصداً، أم أنه هو أيضاً كان يجهلها.

أية حكاية؟ تبين أن يونس بابازواغلي هو حفيد رجل يدعى أيوب بابازواغلي، وأن هذا الرجل هو إبن يوسف بابازواغلي من إمرأته الأولى ـ المرأة التي ماتت بداء الطاعون.

ـ أنت تمزح. قال جدي.

وضحك جورجي: «أنت لا تعرف كم يتشابه الناس حقاً حتى تنظر إلى وجههم بعد أن تخبرهم حكاية غريبة».

وابتسم جدي وكان يقول لنفسه إنه بلى يعرف. وأنه إختصاصي القصص الغريبة لأنه ببساطة إسكافي. ومن هو الإسكافي؟ إنه الرجل الذي يقبع في قبو تحت الأرض كي يصنع

للناس أحذية ستأخذهم حتى آخر العالم. وقال جدي إن هذه هي الحقيقة. لقد صنع أحذية لكبار الضباط. حتى الجنرال مكسيم ويغان، المفوض السامي، انتعل حذاءً صنعه جدي بيديه الإثنتين. ومنتعلاً الصباط المذكور ـ «صباط الحدّاد» الشهير ـ قطع الجنرال ويغان قارات العالم فيما جدي لا يزال ماكثاً في المكان ذاته ـ القبو الذي تحت البيت ـ وفيما مؤخرة جدي تتململ فوق الكرسي الخشبي الثابت أبداً خلف طاولة الشغل المدروز سطحها بالمسامير الرفيعة. والآن أحسّ جدي بمرارة في حلقه. وتساءل هل هي المرة الأولى التي تصعد فيها هذه المرارة إلى فمه. وقال لا. وقال إنه ذاق طعمها فوق لسانه كلما كان يتذكر الأخوين بابازواغلي، فيستعيد مشهد القارب وهو يبتعد مع الجَزْر ويختفي في عتمة البحر الواسعة، ويتخيل لنفسه حياة أخرى، ويتخيل أنه سافر معهما، ويتخيل. . .

ـ «جاء يونس إلى المستشفى وكنت أتماثل للشفاء. جلس متبسماً وحكى لنا القصة ـ قصة جده أيوب بابازواغلي الذي هو شقيق جدنا سهيل بابازواغلي من أبيه.

قال يونس إن جده أيوب كان حاد الطباع ودائم الخلاف مع الأب يوسف. وكي يبتعد وجد أيوب نفسه يهاجر من جبل لبنان إلى الإسكندرية. في الإسكندرية أخذ يعمل في التجارة، فعمل موظفاً صغيراً في مسك الدفاتر في بعض المحلات التجارية. ثم فتح محلاً خاصاً في الزقازيق. . . وأخذ يتاجر بالقطن والحبوب. وأقام شبكة من العلاقات مع كبار التجار وأصحاب البنوك. لكن الهبوط المفاجىء لأسعار القطن في ثمانينات القرن التاسع عشر

هزّ أيوب بابازواغلي. وبعد أن خسر قرابة ستين ألف جنيه مصري، توفي بالسكتة القلبية. وكان ذلك في عام 1884.

وقال يونس إن والده فريد، وهو ثاني أبناء أيوب بابازواغلي، وُلد بالإسكندرية في شباط 1861 وتعلم في أكبر المدارس ثم التحق بقسم الترجمة في وزارة المالية ثم عيّن رئيساً للقلم الأجنبي في عام 1883، أي قبل سنة واحدة من موت الجد أيوب.

وقال يونس إن والده فريد نال نيشان الخديوي من المراتب الثانية والثالثة والرابعة في عام 1891 وأنه توفي قبل سنوات. فكان عليه أن يرث وظيفته».

وضحك جورجي ولفّ سيكارة أخرى وتابع:

ـ «قانون الوراثة قوي في عائلتنا كما ترى. وقانون الصدف أيضاً. إبن عم خرج لنا من الهواء. هذا الـ «يونس» صاحب الإبتسامة الكبيرة فتح أمامنا جميع الأبواب. مثل الجني المسحور الذي كان جدي سهيل يخبرنا عنه. وفهمنا أنه مثلي يملك ذاكرة رهيبة للأرقام وللأسماء. لن تصدق الأشياء التي كان يتذكرها كأنه يقرأها في كتاب. المهم: ما أن خرجت من المستشفى حتى أنزلنا في بيته في الإسكندرية ثم اتصل بمهاجر لبناني من أصدقائه ويدعى ميشال أسعد كرم، وهو تاجر كبير وصاحب شركة تعهدات مهمة في مجال البناء، وطلب منه أن يضمنا إلى فريق عمله، وهكذا بدأت رحلتنا.

كان جوزف يقرر ويفكر ويعمل بسرعة، فكان عليّ أن أكون قربه فقط وأن أتحرك كأني ظلّه كي ننجز عملنا على خير ما يرام.

في البداية كانت مهمتنا البحث عن عقارات صالحة لإنشاء مساكن للإيجار. لكن فيما بعد استطاع جوزف أن يقيم علاقات شخصية مع أقارب لميشال كرم كانوا يعملون في تجارة الأخشاب. وهكذا بات في وقت قصير وسيطاً بين الشركتين. وبالنسب المئوية التي كان يجنيها من الصفقات المتبادلة جمع رأسمالاً كافياً كي نؤسس مكتباً مستقلاً للسمسرة.

وكل ذلك يا صديقي خلال ثلاث سنوات. وصار إسمنا معروفاً في الإسكندرية وتوسعنا في المديرية الشرقية وأنشأنا فرعاً لمكتبنا في القاهرة. إن قصص الثروات تشبه كرات الثلج. عليك فقط أن تبدأ وبعد ذلك لن تتوقف عند حد...».

وفكّر جدي أن هذا لا يصحّ مع الأحذية. فحتى أسرع إسكافي لا بد وأن يصل إلى رقم قياسي محدد في صناعة الأحذية؛ وبعد ذلك؟ إما ينتهي الوقت، أو تؤلمه أصابعه، أو يقتله وجع بطنه... وإبتسم جدي لنفسه وقال إن كرة الثلج أيضاً لها نهاية. لكنه رغم ذلك ظل غارقاً في الغم. وتساءل هل كان سيجني ثروة لو ظلّ في السويدا، وقال إنه لا يعرف. لقد ظلّ فوق سنة واحدة، وقبلها قضى في ثكنة بيروت سبعة أشهر، وبعد أن عاد من السويدا جعلوا مركزه في الجرد الشمالي كما وعدوه. وبعد وساطة بعض الضباط سمحوا له بالعمل في القبو الذي تحت البيت. وكانت شاحنة جنود فارغة تأتي عند نهاية كل أسبوع إلى قلب البلدة كي تأخذ الأحذية الجاهزة وكي تفرغ في القبو الأحذية الواجب تصليحها. وكان جدي يقف أمام كومة الأحذية المتسخة، ويقول للجندي، الذي يقود الشاحنة ويبدو

مسيطراً على الجنود الثلاثة الآخرين، أنه يفضل أن يصنع مئة حذاء جديد على أن يصلح حذاءً واحداً من هذه الأحذية.

ـ «في صيف عام 1932 جاءت إلينا فرصة العمر. باعتنا القنصلية الفرنسية مبناها القديم بوساطة من رئيس قسم الترجمة في وزارة المالية المصرية. بلى، ملاكنا الحارس، ابن عمنا يونس، ولا أحد غيره. وكان المبنى الضخم بحاجة إلى ترميم ففعلنا ذلك. وخلال سنة واحدة كنا قد حوّلناه إلى فندق سياحي من الدرجة الأولى. فندق بات خلال وقت قصير ـ وبمساعدة أساسية من شريك النصف فيه، يونس بابازواغلي ذاته ـ أهم فندق ليس في الإسكندرية فقط بل ربما في مصر كلها أيضاً».

وتساءل جدي كم مرة وقف أمام مفترق طرق، واستغرب كيف أنه كان، في كل مرة، يختار الطريق التي ستدور به دورة كاملة، فتعود به إلى هذا البيت الصغير في هذه البلدة المجهولة. وقال إنها الحياة. لقد كان هذا الجواب ـ إنها الحياة ـ مقنعاً دائماً بالنسبة إليه وكافياً لتبرير كل شيء، طوال عمره. في شتاء عام 1918 مثلاً، وعند الساعة التاسعة من صباح نهار الإثنين 2 كانون الأول تحديداً، دخل إلى السرايا الجديدة في بيروت وأجرى امتحاناً خاصاً بطالبي الدخول في سلك الجندرمة والبوليس، بعد أن قدم للضابط المشرف على الامتحان الأوراق المطلوبة منه: تذكرة النفوس، وشهادة حسن السلوك من مختار البلدة. وفي نهار الإثنين التالي ذهب إلى السرايا وقرأ النتائج المعلقة على الجدار فإكتشف أنه قد. . .

ـ «كنا قد وصلنا إلى القمة. طبعاً جوزف هو الذي وصل،

وبمساعدة من ابن العم. لكن بصفتي ظلّه فلقد وصلت معه. وبعد أن وصلنا إلى القمة بدأت المصائب...».

المصائب؟ فكّر جدي أن المصائب تبدو كبيرة للوهلة الأولى فقط، وأن الوقت يمحو كل شيء. وقال لنفسه إن ما يبدو الأفضل أحياناً يكون في الحقيقة الأسوأ ولا شيء إلاً الأسوأ. وإبتسم جدي لنفسه، وكان يتذكر وقوفه في البرد والمطر أمام لوحة النتائج. وقرأ الأسماء وكان اسم بطرس يتكرر على نحو غريب وفكر أن الجندرمة ستقع في المشاكل إذا كان جميع عناصرها يحملون إسم بطرس. ثم قرأ: «سليم حداد». لم يفشل، لا. وبات بمقدوره أن يقول إنه رجل من البوليس. فليس عليه إلاً أن يذهب إلى دورة تدريب على السلاح وهي دورة تستغرق شهراً واحداً فقط، وبعد ذلك: البذلة والبندقية والقبعة والوقار... والمراكز المتنقلة، والركض من الشمال إلى الجنوب، والطرقات التي تشبه متاهات، والبقاء بعيداً عن البلدة والبيت وقبو العدّة الذي ورثه عن أبيه مع المصلحة. صعد جدي إلى البلدة وقال لجدتي إنه لم ينجح في الإمتحان.

«لكن قبل أن أحكي لك عن المصائب سأحكي لك عن الصدف مرة أخرى. هل تعرف بمن إلتقينا في مصر؟ صدّق أو لا تصدق، إلتقينا برجل يدعى إميل زيدان وهو إبن جرجي زيدان. بلى، صديق جدنا الذي كان يعمل مع أبيه في لوكندة على ساحة البرج، هل تعلم إلى ماذا تحوّل فيما بعد؟ إسمع: حين كان جدنا في السجن خاض جرجي إمتحانات الدخول إلى الكلية الإنجيلية فنجح فيها وأخذ يدرس الطب على أيدي دكاترة مثل لويس

وبوست وفانديك وبلس. بعد ذلك حصلت أزمة في الكلية خلال عام 1882 بسبب من مسألة داروين. فالدكتور لويس قدّم محاضرة عن داروين والدكتور بوست وقف ضده وإعتبر أن محاضرة كهذه هي هرطقة. ولا يجوز تعليم الهرطقة في كلية إنجيلية بروتستنتية تؤمن بأن الإنسان هو خليقة الله وليس خليقة القرود. وإلى جانب بوست وقف بلس وأغلبية مجلس العمداء، أما إلى جانب الدكتور الشاب المتحمس لويس فلم يقف إلاّ الدكتور فانديك ومجموعة من تلامذة الطب ـ وبينهم جرجي زيدان ومجلة «المقتطف» التي كان يصدرها إثنان من الأساتذة الشباب في الكلية هما يعقوب صروف وفارس نمر. المهم بعد هذه الأزمة وجد جرجي نفسه شبه مطرود من الكلية فقرر السفر إلى مصر لمتابعة دراسته في القصر العيني حيث مدرسة الطب الشهيرة. وبالفعل سافر إلى هناك. وكان قد سبقه إليها يعقوب صروف وفارس نمر بدعوة من رئيس وزراء مصر آنذاك، رياض باشا. في مصر إستقرا وعادا إلى نشر مجلتهما منها بعد أن بات مستحيلاً إصدارها من بيروت. وجرجي أخذ يشتغل معهما في المجلة. ثم أسس لنفسه مجلة خاصة أسماها الهلال. وأسس أيضاً داراً للنشر. وأخذ يكتب روايات وصار مشهوراً جداً. أنا معي بعض رواياته في الحقيبة. كلها عن تاريخ العرب ومليئة بالصدف الغريبة. وأنا وجوزف حين وصلنا إلى مصر رأينا كتبه في المكتبات واسمه مكتوب عليها لكننا كنا نظن أنه شخص آخر حتى إلتقينا بإبنه إميل. فجرجي مات عام 1919 ونحن لم نلتقه. لكننا إلتقينا فارس نمر. إنه ثري جداً ويملك الكثير من الأراضي في الريف المصري وهو ما يزال يأكل اللبنة والزيتون والزعتر في كل مساء. هو من حاصبيا. ولقد

هرب منها في عام 1860 مع أمه، ونزلا سيراً على الأقدام إلى صيدا، ثم سافرا بالباخرة إلى بيروت. هل تعرف كيف مات أبوه؟ ذبحوه في قلعة حاصبيا. وذات مرة سأله جوزف عن أزمة عام 1882 في الكلية الإنجيلية فضحك فارس نمر وقال له إنها كانت طبيعية جداً وأنه كان يتوقع أن يصنع لهم الدكتور بوست تلك المصيبة مع العمداء الأجانب الآخرين لأن الناس ما يزالون قروداً حتى هذه اللحظة.

إسألني لماذا أخبرك بكل هذا؟ لأنه بواسطة من هذا الرجل بدأت مصائبنا. كيف؟ إسمع...».

وكان جدي يستمع إلى كلمات جورجي، والبلدة نائمة، والدخان يتصاعد من اللفائف ويخرج من بين أوراق التعريشة ويصعد متلاشياً نحو السماء. وبين حين وآخر كان الهواء يهب، فتخشخش جدران الخيمة المصنوعة من الأغصان والقصب والوزال. وفكّر جدي أن عليه إضافة عمود خامس لرفع التعريشة جيداً عند مركزها لأنها لم تعد صغيرة على الإطلاق، وتساءل ما قيمة ذلك في نهاية الأمر، وإلى متى ستستمر الأشياء على هذا النحو؟ ونظر جدي من فوق كتف جورجي إلى داخل الخيمة ورأى جوفها غارقاً في العتمة، وقرب مدخلها كان ضوء القمر يرسم خطاً أبيض رفيعاً كأنه خيط حرير. والآن كان القمر وراء الخيمة ووجه جورجي غارق في الظل، وفكّر جدي أن وجهه يبدو واضح الملامح تماماً الآن، وأن جورجي يقدر أن يقرأه بسهولة في هذه اللحظة، وتساءل هل كانت الأمور هكذا دائماً، فهما يعرفان ما يفكر به، وهو لا يعرف شيئاً عنهما؟ وتساءل هل

كان جوزف يعرف أنه هو أيضاً قد وقع في غرام زهية... منذ ذلك العصر، حين رآها خارجة من معمل بورتاليس. وتذكر مرة أخرى صعود جوزف إلى القارب في تلك الليلة البعيدة، وقال لنفسه إن جوزف كان يعرف. ومجدداً سأل نفسه: هل سافر جوزف كي يتاح لي الزواج من زهية وهل تركها من أجلي؟ ومرة أخرى كان السؤال يطعنه كخنجر. بلى، كان دائماً يسأل نفسه هذا السؤال. منذ ثلاثٍ وثلاثين سنة وهو يتلفت حوله وينظر إلى جدران القبو، وإلى لفّات الجلد الطويلة المسنودة إلى الزوايا، وإلى الشاكوش وعلبة الصمغ، وإلى النافذة المربعة العالية الي تضيء طاولة الشغل، وإلى اللمبة الصفراء التي تتدلى من حبل متسخ، وإلى الكنبة المكسورة التي لم تحب جدتي أن ترمي بها إلى الوادي لأنها تذكرها بالأيام القديمة ـ أية أيام؟ أية لعنة؟ إنها الكنبة التي اشتراها من عاليه بمناسبة زواجهما. بلى، ثلاث وثلاثين سنة مرّت وهو يكرر السؤال ذاته في قلبه، ولا يقدر أبداً أن يلفظ كلماته مسموعة، لا أمام أحد، ولا في عزلة القبو الذي تحت البيت. والآن...

ـ «فارس نمر متزوج من إمرأة فرنسية من مونبيليه إسمها هيلانة. وهو عنده خمسة أولاد. صبي يدعى ألبير، وأربع بنات: كاتي ونيللي وإيمي وروبي. ألبير مهندس زراعي وهو يعيش في عزبة في المحافظة الغربية ولا علاقة له بالسياسة أو بالصحافة كما والده. إنه فقط يشرف على أراضي العائلة ويتاجر بالقطن والحبوب. فارس نمر يعيش في المعادي مع زوجته وإبنته روبي، والمعادي حيّ في القاهرة. البنات الثلاث الأكبر من روبي كلهنّ متزوجات. كاتي متزوجة من جورج أنطونيوس وهو لبناني من

سكان مصر. نيللي متزوجة من طبيب جرّاح إنكليزي يقطن بورسعيد. وإيمي أيضاً متزوجة من إنكليزي هو سفير فوق العادة للمعتمدية البريطانية في القاهرة. وحين تزوجت إيمي حصلت مشاكل لأن الحكومة البريطانية لا تسمح لدبلوماسييها بالزواج من أجنبيات. المهم ظلت روبي.

قلت إن مصائبنا واسطتها فارس نمر، ويجب عليّ أن أضيف اسم زوجته الفرنسية هيلانة إبنود. فلو أنهما لم يكونا ولم يتزوجا لما جاءت إلى العالم هذه الفتاة التي تدعى روبي. . .».

وأطلق جورجي ضحكة قصيرة، وقال جدي لنفسه إنه سيبدأ الآن بلفّ سيكارة أخرى، لكن جورجي لم يفعل ذلك. وقاطع جدي حكاية جورجي، وسأله: «لماذا تدخن هكذا؟ إنك لا تتوقف عن التدخين أبداً!».

ـ إنه قانون الوراثة. ألا تذكر جدنا سهيل؟

وهزّ جدي رأسه، وفكر أن جسده يؤلمه، وقال إنه مرض المفاصل. ولم يكن يشكو من داء المفاصل لكن إسكافياً من عاليه أخبره أن جميع الذين يعملون في هذه المصلحة يمرضون بهذا المرض عاجلاً أم آجلاً، بسبب قلة الحركة، وبسبب رطوبة الدكاكين. ذلك الإسكافي كان أعور وقال له إن التحديق بالمسامير الرفيعة أتلف عينه إذ ملأتها المياه الزرقاء والحمراء. وقال له إن أجداده أيضاً كانوا يشتغلون في المصلحة، وأن بينهم واحداً مات متسمماً بالبخار القوي الذي يتسرب من علبة الصمغ التنكية. وقال: «لأنك تجلس قرب تلك العلبة عشرات السنوات وفي كل يوم لا تنتبه للبخار وهو يتسلل إلى صدرك، وفي النهاية

تصبح رئتك كتلة من الصمغ المتجمد لأن البخار يتحول في داخلك إلى قطعة جامدة». وتساءل جدي لماذا يوجعه صدره كل صباح، وفكّر أنها قطعة الصمغ، وعندئذ أحسّ بها تستدير تحت أضلاعه، وكانت قاسية وحادة الأطراف، وخيّل إليه أنها تجرح رئتيه وحنجرته، وفي تلك اللحظة ذاتها كان جورجي قد وصل إلى قلب حكايته فبدأ الحديث عن جوزف وكيف وقع في غرام روبي، وكانت قطعة الصمغ تتحرك في صدر جدي كأنها سوسة في جذع شجرة، وكانت تنخره من الداخل، وفكّر أنها مثل دودة القزّ لا حدود لشراهتها وطمعها وأنها ستقضي عليه وتجوفه تماماً. وفكّر جدي أن ما كان يخاف حصوله قد بدأ أخيراً. فمنذ أن بدأ جورجي الكلام وجدي يعلم أنه سيصل به إلى هنا. إلى الكلام عن جوزف وعن قلب جوزف. كم مرة رأى في المنام جورجي يبتسم له ثم يشير إلى ثور مذبوح ومرمي على الأرض بينهما ويقول إن عليهما الآن أن يستخرجا قلبه؟ ذلك الكابوس الذي كان يعاوده في أولى الأيام الباردة من كل سنة. والذي أبصره لأول مرة في الليلة التي سبقت زواجه من جدتي.

ـ «مصائبنا كلها جاءت من مصيبة واحدة: الفتاة التي أحبها جوزف فلم يعد يريد شيئاً غيرها من العالم كلّه: روبي، إبنة فارس نمر. رآها لأول مرة حين جاءت مع أهلها إلى فندقنا، وكانوا يقضون الصيف في الإسكندرية. نحن لم نكن نعرف فارس نمر إلاَّ من الصحف ومن كلام إميل زيدان عنه. فالأستاذ إميل كان من نزلاء فندقنا شبه الدائمين. كل ما كنا نعرفه عن فارس نمر أن أصله من لبنان وأنه صاحب «المقتطف» و «المقطم» ـ مع يعقوب صروف طبعاً ـ وأنه يشتغل في السياسة لأنه عضو

في مجلس الشيوخ المصري، ولا شيء غير هذا. ثم جاؤوا إلى فندقنا. . .».

والآن كان جورجي يلفّ سيكارة أخرى. ولاحظ جدي أنه لم يفرد الورقة الرقيقة على فخذه بالرشاقة التي اعتادها منه خلال الأيام الخمسة الماضية. وحين وضع التبغ على الورقة واستخدم أصابعه لتوزيع التبغ في خط مستقيم اكتشف أنه أخطأ في تقدير كمية التبغ التي أخرجها من العلبة وأنه كان بحاجة إلى إخراج المزيد، وبالتالي إلى التأخر في إنجاز لفّ السيجارة لثوان قليلة أخرى. طبعاً كان القمر وراءه الآن، والظل يغطي جزءاً من فخذه، لكن بالمقابل فهو لفّ السيجارة السابقة برشاقته المعهودة قبل دقائق معدودة، وعندما فعل ذلك كان القمر خلفه أيضاً. وفكر جدي أنها ليست العتمة، وأن السبب ليس القمر. وعندما أشعل جورجي عود الثقاب أضاءت الشعلة وجهه للحظة وجيزة، لكنها كانت كافية كي يتأكد جدي من شكوكه: إن جورجي يكذب.

«فجأة تبدل جوزف. لم يعد يأكل ولم يعد ينام. ذهب اللون من وجهه، وبانت العلامات الزرقاء تحت عينيه. وبات يحبس نفسه في غرفته، ولا يخرج منها، وبالكاد يتكلم مع أحد. وذات صباح إستيقظ من النوم وهو يصرخ. حاولت أن أفتح الباب لكنه كان مقفلاً من الداخل. ثم سمعت صوته. قال لي أن أطلب طعام الفطور وأنه سيغسل وجهه ويخرج خلال لحظات. ذهبت وطلبت الطعام: شاي وخبز مرقوق وجبن وبندورة وبيض مسلوق. المهم، حين خرج، جلس إلى الطاولة قبالتي وتناول

طعامه كما لم يفعل منذ أيام. شرب فنجان الشاي كلّه وأكل بيضتين وإلتهم حبّة بندورة مقطعة. ثم طلب دبس عنب وأكل أربع أو خمس لقمات كبيرة. وكنت أنظر إليه وأنتظر. وبعد أن إنتهى من الأكل استقام جالساً وقال لي إنه سيتزوج من؟ روبي طبعاً».

وفكّر جدي: «فقط لو كان هذا صحيحاً!» وقال إنه بالتأكيد كذب بكذب. وكانت الدودة تزحف بين رئتيه.

وتابع جورجي وهو ينفث الدخان: «وفي ذلك الصباح نفسه، الصباح الذي لن أنساه أبداً، صباح الأول من آذار عام 1937، راقبت جوزف، وهو يقف ويخرج من الفندق ويركب في العربة الكارو ثم يقول لسائقنا إدريس إن عليه أن يذهب به إلى المعادي كالسهم. وإنطلقت العربة. وحين رجعت في المساء عرفت أن كل شيء سيتهدم فوق رأسينا... قالت له روبي فارس نمر إنها لا تقدر أن تتزوجه لأنها لا تعرفه، وحتى لو كانت تعرفه فهي لن تتزوجه، لأنها تريد أن تبقى قرب أهلها ولا تريد أن تعيش مع أحدٍ آخر أبداً...».

وجدي تذكر البستان المليء بأشجار الخوخ. كان يذهب إليه مع جوزف وجورجي ليكشطوا الصمغ البنيّ المتجمد عن جذوع الأشجار ويعودوا به إلى القبو. هنا كانوا يجتمعون حول والد جدي. وكان والد جدي يضع الصمغ في التنكة الكبيرة ويشعل النار تحتها وينتظر الصمغ حتى يسيل ويغدو لونه أشقر فاتحاً. قال للثلاثة إن أفضل الصمغ هو الأفتح لوناً، والذي بلا طعم وبلا رائحة. هذا يسمونه الصمغ العربي. تبعدُ التنكة عن النار ثم

يُضاف إليها الماء الصافي وتترك في مكان بارد حتى يتجمد المزيج. وهذا الصمغ لا بخار سام يخرج منه، بعكس الصمغ الإفرنجي الذي يُصنع من العظام واللحوم المطبوخة. وتذكر جدي ما قاله الإسكافي صاحب الدكان في عاليه وتساءل هل هو بخار الصمغ الإفرنجي هذا الذي يحرق صدره الآن؟ وفكّر أن والده كان يستخدم الصمغ العربي فقط. وقال لنفسه إن الحق ليس مع والده لأن الصمغ العربي ليس قوياً كفاية، والناس في هذه الأيام تكره المسامير الكثيرة في كعوب الأحذية، ثم إن المسامير تجعل الحذاء ثقيلاً كقوالب الإسمنت.

وقال جورجي: «استمرت الحكاية ثلاث سنوات. وروبي لا تريده. يذهب بالعربة إلى المعادي محملاً بالهدايا. ولأن فارس نمر يحب زهرة الفلّ التي تذكره رائحتها ببيروت كان جوزف يوصي له على باقات الفلّ عبر البواخر القادمة من الشام في نهاية كل أسبوع. لكن روبي ظلت تأبى الزواج. وجوزف بات مريضاً...».

والد جدي أخبره مرة أن الصمغ على الشجرة يعني أن الشجرة مريضة. الآن يتذكر جدي هذا ويتذكر شروحات والده. قال له إن الشجرة تقوم بإفراز هذا الصمغ كي تقتل الحشرات التي تحاول إلتهام جذعها. كالدود. خصوصاً الدود. تحفر الدودة في باطن الجذع ممتصةً نسغ الحياة من جسم الشجرة. والشجرة ماذا تفعل؟ تفرز الصمغ كي تقتل الدودة. أحياناً كان «الثلاثة» يعثرون داخل كتل الصمغ المتجمدة على دودة يابسة وسوداء، ومرة عثروا على فراشة.

وقال جورجي: «لم يعد قادراً على النوم. لم يعد ينزل من غرفته. أهمل كل شيء. وبات كشجرة يابسة».

وأشعل جدي سيجارة ونظر إلى قدميه. هناك طريقة لمساعدة الشجرة على قتل الدودة. المزارع المحنك يبحث عن الثقب الصغير الذي تسرب منه الصمغ إلى سطح الجذع. حين يجد هذا الثقب، يغرز فيه شريطاً رفيعاً من الحديد. الآن عليه إدخال هذا الشريط عبر الممر الرفيع الذي يتلوى داخل الجذع. إنه الممر الذي حفرته الدودة. إنه الممر الذي حاولت الشجرة أن تملأه بالصمغ كي تقتل الدودة. لكن الدودة تهرب من الصمغ إلى الداخل عوضاً عن الخروج. وعلى المزارع أن يقضي عليها برأس الشريط الحديدي. كيف؟ يستمر في إدخال مزيد من الشريط حتى لا يعود بمقدوره متابعة ذلك. الشريط وصل إلى آخر الممر الذي حفرته الدودة. الآن يسحب المزارع الشريط الرفيع من داخل الجذع. يفعل ذلك رويداً رويداً كي لا يجرح بطن الشجرة أكثر مما جرحته الدودة. وفي النهاية يخرج رأس الشريط وقد تدلّت منه الدودة الشقراء اللون.

وقال جورجي: «ثم ذات ليلة أخذ يسعل على نحو مخيف. وحين فتحت الباب ودخلت عليه وجدته يبصق دماً أسود كالخشب المحروق».

وقال جدي لنفسه إن هذا قد يكون صحيحاً. ربما بالفعل استطاع جوزف أن ينسى زهية وأن يحب غيرها. وقال جدي لا، لم ينسها، وروبي كذبة.

وكان الآن محتاراً ولا يعرف ماذا يصدق. كم يود لو كانت

هذه الحكاية صحيحة! لكنه يعرف أنها ليست كذلك. لأنه يعرف جوزف. ولأنه يعرف زهية أيضاً. زهية التي تتحرك بين الأشياء كأن قدميها لا تلمسان الأرض، وكأن أجنحة خفيفة تدفع جسمها عبر الهواء. زهية التي أنجبت له أربع بنات، ورغم ذلك ظلت صغيرة. ومثل الأطفال تبكي حين ترى جرذاً.

وقال جورجي: «في المستشفى صوّروا صدره بأشعة إكس. وتبين أنه مصاب بالسلّ في رئته اليمنى».

أحياناً يكون طول الجذع لا يتجاوز المتر الواحد. ورغم ذلك يدخل فيه شريط طوله ثلاثة أمتار. ذلك أن الدودة لا تحفر ممرها كخط مستطيل بل كخط كثير التعرجات. ولهذا السبب بالذات تغدو مطاردتها شديدة الصعوبة. لأنك تدفع الشريط إلى الداخل أكثر فتكتشف أنه قد علّق في أحد منعطفات الممر الكثيرة. أو لا تكتشف. وتحسب أنك قد وصلت إلى الدودة وأن رأس الشريط قد إنغرز في بطنها الطري، وأنك فقط لم تحس إرتعاشة موتها تصل إلى أصابعك، لأن الشريط ليس رفيعاً كفاية، ولأن أصابعك متعبة ولأن. . . بلى، يخدعك الشريط العالق عند إلتواء الممر فتسحبه بسرعة. يجب أن تسحبه ببطء لكنك متعب. لا شيءَ سيريحك من هذا التعب إلاّ رؤية الدودة الشقراء الطويلة وهي تخرج من ثقب الشجرة متدلية من رأس الشريط، كسمكة تتدلى من سنّ صنارة وهي ترتجف وتضوي في الشمس. ولأنها تضوي ولأنها شفافة وتشبه أنبوباً طويلاً من الزجاج ولأنك تعرف أشياء عن الدود، فأنت تعرف أيضاً أن الدودة التي اصطدتها للتو كانت تعيش أيامها الأخيرة. وكانت تبحث عن بيت وملجأ تتكوم

فيه حول نفسها وتنام كي تتحول إلى زيز ثم إلى فراشة. هذه الديدان لا تصنع شرانق. بل تلجأ إلى جذوع الأشجار. وفي نهاية الربيع تخرج من الثقوب وتطير. الوالد قال لك ذلك. لكنها تفعل هذا في الليل ولهذا لا نراها أبداً.

تذكر جدي كل شيء وتساءل من حكى له هذه الأشياء. أوالده حقاً؟ إم زوجته زهية؟ وزهية من أخبرها؟ وتذكر جدي أنه كان يفكر بالممرات المتلوية التي تصنعها الديدان، وعاد إلى فكرته التي قطعها، وعقد خيطاً وتابع: إنك متعب وتنتظر خروج الدودة من الثقب. لكن رأس الشريط يخرج دون الدودة. تتلمسه كي تتأكد. لكنها ليست هنا. ولا لزوجة على رأس الشريط ولا... لقد خدعتك. كل تلك المنعطفات أوصلتك إلى الضياع، فلم تجدها. وإبتلع جدي ريقه وفكّر بجوزف.

وقال جورجي: «ابن عمنا يونس إتصل بطبيب من أصدقائه يدعى شاكر مبارك. وهذا الطبيب المشهور نصحنا بالسفر إلى ألمانيا على الفور لأنهم هناك يملكون أحسن المصحات وأماكن العلاج، لهذا المرض بالذات، ولجميع أمراض التدرن عموماً».

(جملة إعتراضية)

بلى، هذا صحيح. إني أفكر في هذه اللحظة بالذات، وربما كنت أفكر بالأمر نفسه خلال اللحظات السابقة وبينما أكتب عن الشريط والممر المليء بالمنعطفات؛ ورغم كوني لا أحس بالإطمئنان أبداً لهذه الفكرة، لكن ماذا أفعل، وماذا أقدر ضد هذه الأفكار، وهي ليست أفكاراً في نهاية المطاف بل أحاسيس،

مجرد أحاسيس، ربما تبدأ من الصور ـ كصورة المنعطفات مثلاً.

بماذا أفكر؟ أفكر بتلك المرأة ذات المعطف الرمادي الطويل، المرأة التي طاردتها عبر شوارع معتمة ذات ليلة من ليالي الخريف، وكانت هي تتحرك مسرعة كأنها تعيش لحظاتها الأخيرة، والشوارع التي كانت تدخل فيها كانت تبدو لي كأنها شوارع إنبثقت من العدم فجأة، كأن قدميّ تلك المرأة كانت تصنع الشوارع أمامها. . .

تصنع الشوارع؟ لا، ربما كنت أقصد كلمة «تشق» عوضاً عن كلمة «تصنع».

والكلمة الأصدق هي «تحفر».

(جورجي يتابع...)

وقال جورجي: «تركنا الفندق في عهدة إبن عمنا يونس وبدأنا نستعد للسفر إلى المانيا. وكنا قد ذهبنا إلى مستشفى القصر العيني حيث قام الدكتور سليمان عزمي باشا، وهو أستاذ الأمراض الباطنية في مدرسة الطب، بإجراء فحص آخر لجوزف، وأيضاً بأشعة إكس. إنني ما أزال أحتفظ بالصور وغداً سأريك إياها. ترى لون الجسم أبيض، وترى لون الرئتين أسود. لكن في أعلى الرئة اليمنى ترى بقعاً بيضاء. هذه البقع يسمونها عقد درنية. وهي نتيجة الإلتهاب القوي الذي تسببه جرثومة السلّ».

أحسّ جدي بألم في صدره. قبل خمسة أيام، حين جاء جورجي وطرق الباب بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الغياب، كان

جدي جالساً في القبو تحت البيت يصلح الأحذية. إنها أحذية عادية، وليست أحذية للعسكر. فالفرنسيون ذهبوا، والعمل بات قليلاً، وهو أصلاً أصبح يشكو من ضعف في بصره، ثم إن الجيش الفرنسي سيصرف له تعويضاً كبيراً و. . .

«والدكتور سليمان باشا قال لنا ما قاله قبله الدكتور مبارك: إذهبوا إلى ألمانيا. وأعطانا اسم أشهر الأطباء هناك، وقال لنا إن أبرعهم على الإطلاق هو الدكتور «زوربروخ» وأن معاونه من أصل لبناني ويدعى هنري شاول وهو طبيب أشعة ومدير معهد «رونتجن» في برلين».

كان جدي جالساً في القبو حين سمع فجأة أصوات البنات تناديه فركض إلى الباب وفتحه ونظر إلى أعلى الدرج. بلى، إنه هو. لقد عاد. وكان جورجي يقف في معطفه الأخضر الطويل والضوء القوي القادم من خلفه يقع داخل عيني جدي، ولم يفكر جدي أنه جورجي، وكان يحسب أنه جوزف. وأخذ يصعد الدرج درجة درجة. وكانت أضلاع صدره تطبق على قلبه ورئتيه وتمنعه من التنفس.

ـ «وفي القاهرة وقبل أن نسافر إلى ألمانيا إعترف لي جوزف بالحقيقة. لقد كان يحسّ أنه مريض منذ وقت طويل، لكنه كان يحبس نفسه في الغرفة، ولا يسعل إلاَّ بعد أن يقفل باب الحمام خلفه ويفتح حنفيات المياه كلّها كي لا أسمع سعاله، وكي لا أعرف. وقال إنه متعب كثيراً ولا يريد أن. . .».

وقال جدي لنفسه إنه كان يعرف أن القصة ستصل إلى هنا. منذ البداية وهو يعرف. منذ بداية هذه الليلة الطويلة؟ لا، منذ

عودة جورجي. منذ أن صافحه هناك، عند أعلى الدرج، ثم ضمّه إليه، وكان جدي يعرق، وقال له جورجي إن جوزف قد مات بالسلّ لأنه لم يحتمل تعب الهجرة الطويلة. هل استخدم تلك العبارة؟ هل قال «تعب الهجرة الطويلة»؟ أم قال «التعب» فقط؟ وما الفرق؟ وفكّر جدي أنه يعرف كل شيء، ويعرف لماذا يفعل جورجي كل هذا ويعرف ماذا يريد منه وماذا يريد أن يفعل به. والآن، على السطح، وفي هواء الليل العليل، كان جدي يعرق مرة أخرى، ويتذكر المعطف الأخضر الذي كان جورجي يرتديه رغم أشعة الشمس الحادة، وهو يقف هناك، كالشبح، كرجل خارج من القبر، عند أعلى الدرج. وتساءل جدي هل كان ذلك قبل خمسة أيام فقط؟ وقال بلى، فقط خمسة أيام وها العالم قد تبدّل.

ـ «وجاء يونس من الإسكندرية كي يودعنا وكان في حوزته مبلغ كبير من المال أعطاه لنا. وكان برفقته طبيب يدعى فيليب الشدياق. وقال يونس إن صديقه الطبيب هو واحد من أشهر الأطباء في مصر ومن الأكثر معرفة بمرض السلّ ووسائل علاجه. وأنه صاحب مؤلفات في هذا المجال.

وإبتسم الطبيب وقال إنه صاحب مؤلف واحد فقط لكنه يعرف مثلاً الدكتور الألماني الذي نحن ذاهبون إلى ألمانيا من أجله وقال إنه حَضِر له عملية جراحية وإنه يثق به كثيراً ويعتبره عبقرياً وبطلاً. وقال إن جوزف يملك حظاً كبيراً بالشفاء رغم التدرن الفظيع الذي يأكل رئته اليمنى ويهدد بالإنتقال إلى الرئة الأخرى. ثم أخذ يخبرنا عن إنتشار هذا المرض في مصر. وكان

جوزف متعباً ودخل إلى غرفة النوم وسهرت أنا مع الطبيب ومع يونس. وكنت أحسّ نصفي معهما، ونصفي الآخر مقسوماً عني وقاعداً في الداخل مع جوزف.

قال لي الطبيب أن أنتبه جيداً لأن نقطة رذاذ واحدة تصيبني من سعال أخي أو بصاقه قد تنقل العدوى إليّ.

وقال إنه في مصر كلها لا يوجد حالياً سوى مصحّ واحد لعزل مرضى السلّ وعلاجهم، وهو مصحّ حلوان. لكنه يتسع لـ 400 سرير فقط، أي لا شيء تقريباً. والآن أهل حلوان يريدون إغلاق هذا المصحّ لأنهم يخافون منه، وهناك بيوت مجاورة له يقول سكانها إنهم لا ينامون خلال الليل من جراء ضجة سعال المرضى.

لكن دون هذه المصحات فالمرض يزداد إنتشاره بسرعة رهيبة. كالجذام. بل، وأسرع من الجذام أيضاً. ولولا الإهتمام الذي أبداه المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول لمكافحة هذا المرض لكانت ربع مصر تشكو منه الآن. لكن حتى هذا ليس كافياً، قال الطبيب. وقبل مغادرته مع يونس عند منتصف الليل أهداني الكتاب الذي ألّفه عن مرض السلّ وعلاجه، والذي ما أزال أحتفظ به بين كتبي وأغراضي حتى الآن».

قبل ثلاثة أيام رأى جدي جورجي وهو يفتح إحدى الحقيبتين الكبيرتين. كانت الحقيبة مليئة بالكتب، وحين سأله هل قرأها كلها إبتسم له جورجي وقال إنه طوال هذه السنوات لم يفعل شيئاً غير قراءة الكتب وإعادة قراءتها.

ـ والشغل؟ سأله جدي.

ـ الشغل إختصاص جوزف.

ومرة أخرى يفكر جدي أن جورجي كان يكذب وأنه إخترع حكاية روبي. وقال جدي لنفسه إن من قرأ كل تلك الكتب هو شخص قادر بالتأكيد على إختراع الكثير من الحكايات الكاذبة.

ـ «في ذلك الكتاب يقول الطبيب إنه خلال سنة 1937 فقط، مات في مصر أكثر من ثمانية آلاف شخص بسبب مرض السلّ الرئوي، وأن أمراض تدرنية أخرى مثل سل الجلد وسل الأمعاء والعظام قد قتلت خمسة آلاف شخص آخر خلال السنة ذاتها... وفي تلك الليلة بينما جوزف يسعل وهو نائم وأنا أقرأ في ذلك الكتاب وأستعد لحزم ما تبقى من أغراض سفرنا تذكرت جدنا وحكايته مع إبراهيم بخعازي وتساءلت كيف لم تنتقل جرثومة المرض إليه! وهل تعرف ماذا اكتشفت في الكتاب؟ اكتشفت أن المرض قد يتأخر كي يظهر، وفي هذه الحالة يسمونه بالمرض الكامن. ولكن هذا لا يعني أنه غير موجود. وإذا تعرض الشخص للكثير من الإرهاق، الصداع والأرق وتعب الأعصاب، فإن هذه الجراثيم الكامنة يمكن أن تنشط فجأة وتتحول إلى جراثيم قاتلة يسمونها جراثيم كوخ نسبةً إلى العالم الألماني الذي إكتشفها في عام 1882. وهل تعرف ماذا اكتشفت أيضاً؟ اكتشفت أن العدد الأكبر من الأطفال يولد حاملاً لهذه الجرثومة. ومن كانت المناعة لديه قوية يعيش حياة كاملة دون أن يصيبه المرض. أمّا الذين لا يملكون المناعة الكافية ف...».

وقال جدي لنفسه إن هذا أمر غريب: إذاً، هو أيضاً قد يكون مريضاً بالسلّ لكنه لم يكتشف هذا بعد. وربما سيكتشفه

خلال الأيام المقبلة. إذا أصابه التعب مثلاً. والصداع. ولم يعد قادراً على النوم في الليل. ربما بسبب الكوابيس. خصوصاً ذلك الكابوس عن الثور المذبوح والقلب الذي... وتساءل جدي هل جاء المرض إليهم من العجوز. من الجد سهيل بابازواغلي الذي كان يدخن ويبصق ويرشهم برذاذ لعابه فيما يحكي لهم عن السجن وعن أزقة بيروت وعن... وقال جدي لنفسه إن جورجي بالتأكيد لن يقتله السلّ لأن لديه المناعة الكافية. وحين حاول جدي أن يفهم سبب هذه القناعة التي استولت عليه فشل في المحاولة. ورغم ذلك ظلّ مقتنعاً بها. وقال لنفسه مرة أخرى: لا، جورجي لن تقتله الجرثومة، جورجي لديه مناعة.

ـ «المهم ركبنا الطائرة إلى برلين. وكنت أسعل مقلّداً جوزف. وحين يقترب منا أحد المسافرين أنظر إليه وأقول إنه التبغ اللعين. لأن مرضىٰ السلّ يُمنع سفرهم بالطائرات عادة. أما جوزف فكان يسعل وهو يغطي فمه بمنديل غامق اللون...».

وحاول جدي أن يتذكر أول مرة حلم فيها أن هناك دودة تعيش في صدره. هل رأى ذلك الحلم قبل قصة خاطر إسطفان؟ هل رآه بعد القصة؟ أم أن الحلم يعود إلى أيام زواجه الأولى وحكايات زهية الكثيرة عن دود القزّ وتجارب بورتاليس؟ وقال جدي لنفسه إن ذلك الحلم جاء إلى رأسه بعد قصة خاطر إسطفان بالتأكيد. لكن، وبسبب من أخبار زهية الكثيرة عن مختبر بورتاليس فإن الحلم لم يتركه.

حتى بات أحياناً ينسى أنه مجرد منام يأتيه في الليل. ويفكر، بينما هو يجلس خلف طاولة الشغل، إنه حقاً مثل ذلك الرجل...

ـ «وفي برلين أجروا له فحوصات أخرى. والدكتور هنري شاول إستقبلني في مكتبه وأخذ يشرح لي عن...».

ذلك الرجل، خاطر إسطفان، كان من أبناء بلدة بتاتر القريبة. وكان، مثله، يعمل مع الجيش الفرنساوي. لكن ليس في المصلحة ذاتها. فخاطر إسطفان كان الرجل المسؤول عن العناية بكلاب الحراسة الموجودة في ثكنة عاليه. وجدي يتذكر تلك السنة جيداً.

ـ «كان قد علّق صور الأشعة على الجدار وسلّط ضوءاً قوياً عليها. وكان يمسك عصا رفيعة ويتكلم العربية باللهجة المصرية. لأنه عاش في القاهرة منذ طفولته وكان طبيباً فيها قبل أن ينتقل إلى ألمانيا. وفهمت أنه يعرف الدكتور عزمي باشا والدكتور فيليب...».

في تلك السنة، سنة مرض خاطر إسطفان، وصلت الكهرباء إلى المنطقة. جدي يتذكر أنه في تلك الليلة كانوا قد ثبتوا لمبات كبيرة عند مدخل البلدة. فصعد إلى السطح كي يتفرج على الناس الذين خرجوا من بيوتهم. ونظر إلى الكوخ المتهدم وتساءل هل سيعود الأخوان بابازواغلي ذات يوم ويعيدان بناء هذا الكوخ. فيما بعد استدار فرأى شاحنة صغيرة تخرج من بلدة بتاتر وتتجه شمالاً. رغم العتمة كان يعرف أن الشاحنة صغيرة وليست كبيرة لأن مصابيحها الأمامية شكلها مربع. إنه يعرف هذه الشاحنات التي يستخدمها الجيش الفرنساوي لنقل المرضى والجرحى، فلقد شاهدها كثيراً من قبل. ثم إن حكاية خاطر إسطفان باتت على كل شفة ولسان منذ أن صدر الأمر بحبسه داخل بيت أهله في

بتاتر ومنعه من مقابلة أحد. لأن طبيب الثكنة قال للضباط إن خاطر إسطفان مصاب بمرض السلّ الرئوي وأنه يشكل خطراً على الذين حوله. ترى، إلى أين يذهبون به في هذا الليل؟

ـ «كانت الصور الجديدة مختلفة عن الصور التي رأيتها في القاهرة. البقع البيضاء القليلة التي رأيتها تغطي أعلى الرئة اليمنى في الصور القديمة، كانت تبدو لي في الصور الجديدة وكأنها قد غطّت الرئة كلّها. وكان شكلها يشبه غيوماً بيضاء ممزقة. وحين أشار الطبيب بالعصا الرفيعة إلى خطٍ شديد البياض يقع في مركز الرئة أحسست أن تلك العصا هي أيضاً رمح، وأن ما أشاهده معلقاً على الجدار أمامي هو صدر أخي جوزف، لا صورة له».

بالشاحنة أخذوا خاطر أسطفان إلى مصحّ بحنّس القريب من بكفيا. الآن تبدل إسم الضيعة إلى ضهر الصوان. الأهالي هناك قاموا بتبديله لجذب السواح. السواح لا يحبون الذهاب إلى ضيع تشتهر بمصحات مخصصة للأمراض الصدرية. ومن بحنّس سيرجع خاطر إسطفان إلى بتاتر وهو يحمل أغرب حكاية.

ـ «وقال الدكتور إن ذلك الخط الأبيض يعني أن الرئة قد إلتصقت بأضلاع القفص الصدري. وأن كل محاولة تنفس يقوم بها المريض تؤدي حالياً إلى تمزيق أنسجة الرئة وأوعيتها الدموية».

في بحنّس، حكى خاطر إسطفان، ثبتوه على ظهره وربطوه جيداً ثم وضعوا شيئاً كبيراً فوقه. شيء مصنوع من الحديد. كان الرجل يصف عملية تصوير صدره بالأشعة كمن يصف هجوماً يشنّه عليه رجال من كوكب آخر.

ـ «وقال الدكتور إنه من الضروري إجراء عملية جراحية على الفور. عملية لتهبيط الرئة. عملية لقص الأضلاع».

الحكاية أفزعت جدي تماماً. ففي ذلك المصحّ، الذي تأسس عام 1921 وتمّ استكمال تجهيزه في عام 1933، اكتشف الأطباء أن هناك دودة تعيش في الرئة اليسرى لخاطر إسطفان منذ ثلاث سنوات تقريباً. هذه الدودة خدعت طبيب الثكنة في عاليه. لأن الطبيب سمع سعال خاطر ورأى لون البصاق الذي يخرج من فمه. ولم يكن البصاق أحمر تماماً لكنه كان أحمر رغم ذلك. أحمر وأخضر وأبيض. ثم إن أعراض السلّ كانت واضحة: النّحول، فقدان الشهية، إرتفاع درجة الحرارة، الألم في الصدر، كل الأعراض كانت تشير إلى السلّ. وكي يتأكد الطبيب سأل خاطر إسطفان عن أجداده وأهله فإكتشف أن هناك بينهم من مات بهذا المرض القاتل.

ـ «وقال الدكتور شاول إن الدكتور زوربروخ سيصل من سويسرا بعد ساعات قليلة وأن بمقدوره إجراء العملية في صباح اليوم التالي».

الحكاية أفزعت جدي تماماً. ففي مصحّ بحنّس، الذي تشرف عليه الراهبات، أظهرت صور الأشعة وجود كيس أكبر من رأس طفل وسط الرئة اليسرى لخاطر أسطفان. أي على بُعد سنتمترات معدودة من القلب. وحين قام الأطباء بشق صدر خاطر إسطفان واستئصال الكيس المذكور وجدوا في داخله دودة طولها خمسة سنتمترات ونصف سنتمتر.

ـ «في تلك الليلة، الليلة التي سبقت إجراء العملية جلست

على كرسي قرب سرير جوزف، وإستمعت إلى صوت تنفسه الثقيل وفكرت بجدنا. وكانت المستشفى هادئة تماماً. وبين حين وآخر كنت أسمع سعالاً أو خطى خفيفة تعبر الممر».

إنه كيس الكلاب. هكذا يسمونه، قال خاطر إسطفان. كيس تصنعه دودة تعيش داخل الجسم وتدعى الدودة الإكينوكوكية. إنه يردد الاسم منذ أن سمعه لأنه لا يريد أن ينساه أبداً. الدودة الإكينوكوكية. قال الأطباء إنها دخلت إلى جسمه قبل أن تصبح دودة. أيام كانت ما تزال بيضة فقط. بيضة مثل بيوض كثيرة أخرى. صغيرة جداً ولا تراها العين وتعيش في شعر الكلاب والقطط. وفي صوف الخراف أيضاً.

طبعاً هو كان يتنفس. لأن الواحد لا يقدر أن يتوقف عن التنفس وإلاَّ مات. وبينما يتنفس ذات مرة، وهو ينحني على كلب من كلاب الحراسة، دخلت بيضة مع الهواء الذي يتنفسه ونزلت في قصبته الهوائية واستقرت داخل رئته. ثم فقست الدودة منها ونمت وصنعت لنفسها بيتاً. وخلال ذلك كانت أنسجة الرئة تتمزق وهو يتألم ويسعل. وطبيب الثكنة قال...

ـ «طبعاً التدخين ممنوع داخل غرف المستشفى. لذلك خرجت إلى الشرفة وجلست على الأرض وأخذت ألف سيكارة ثخينة. وهل تعرف ماذا كنت أفعل؟ كنت أتخيل أول مرة رأى فيها جوزف الدم يخرج من فمه مع البصاق. وهل تعرف ماذا أحسست؟ أحسست أن كل هذا لا يحصل له. وأنه يحصل لي».

ثلاث سنوات والدودة تأكل من لحم رئته وتدور حول قلبه وهو لا يعرف. وذلك السائل الذي كان يبصقه لم يكن إلاَّ قاذوراتها.

ـ «تخيلت نفسي أستيقظ في الليل. قرابة الرابعة فجراً مثلاً. وأستيقظ لأني أحسُّ بكمية كبيرة من البصاق داخل فمي. فأمضي متلمساً طريقي إلى الحمام. وأبصق فوق المغسلة. طبعاً أحسّ أنه أمر غريب أن تكون هناك كمية كبيرة، إلى هذا الحد، من البصاق في فمي. لذلك أشعل عود ثقاب وأنظر. إنها كتلة من الدم. ثم تبدأ النوبة: الدم يتدفق من زلعومي وأنا أنحني وأفكر أنه لن يتوقف عن التدفق أبداً. كيف أوقف شيئاً لم أبدأه؟ وقفت، مشيت حول الحمام والغرفة، ذهبت إلى النافذة، نظرت إلى الخارج، رجعت ـ المزيد من الدم. وفي النهاية توقف وغفوت، غفوت بعمق، كما لم أغفُ منذ زمن بعيد. دون صداع في الرأس. دون كوابيس».

ـ كوابيس عن ماذا؟ سأله جدي.

ـ كوابيس. مثل الكوابيس. عن كل شيء، أي شيء.

وتذكر جدي كابوس الثور المذبوح. كان جورجي يشير إلى الثور ويطلب منه أن يساعده. يساعده؟ بل، كي يخرج القلب وينظر إليه جيداً ـ قلب جوزف.

ـ «في الصباح الباكر، وكان جوزف ما يزال نائماً، جاء الدكتور هنري شاول وطلب مني أن أذهب معه إلى مكتب الدكتور زوربروخ الذي ينتظرنا».

وتساءل جدي لماذا يدخل جورجي في كل هذه التفاصيل لقد أخبره منذ اللحظة الأولى لعودته ـ هناك، عند أعلى الدرج ـ أن جوزف قد مات بالسلّ. فلماذا يخبره الآن كل هذه الأشياء؟ وماذا يريد منه؟ ولماذا عاد إلى البلدة؟

- «في المكتب الكبير جداً كانت هناك صور أشعة جديدة بإنتظاري. وكان الدكتور زوربروخ يحمل عصا رفيعة تشبه عصا الدكتور شاول الذي أخذ يشرح لي لماذا نحن لسنا مضطرين لإجراء عملية جراحية في هذه المرحلة. وذلك على عكس ما كان قد قاله لي في الليلة السابقة.

- هل تعرف ماذا يحيط بالرئة؟ سألني الدكتور شاول.

فأجبته أنني لا أعرف. وحين قال لي إن هناك غشاء مزدوج يحيط بالرئة تذكرت أنني قرأت عن ذلك في كتاب الدكتور الشدياق حين كنا ما نزال في مصر. قال لي الدكتور شاول إن الغشاء المحيط بالرئة، وإسمه البلورا، يتكون من طبقتين. طبقة ملتصقة بالرئة نفسها، ونسميها الطبقة الأحشائية. وطبقة تلتصق بالقفص الصدي من الداخل ونسميها الطبقة الجدارية. وهاتان الطبقتان رطبتان، زلقتان، تحتكان أثناء الشهيق والزفير بسهولة مما يجعل حركة الرئتين سهلة منطلقة. أما إذا دخلت الجراثيم إلى هذا الغشاء فعندئذ تحصل إلتهابات قد تكون خطيرة جداً.

- هل تعرف ما وظيفة الرئة؟ سألني.

وقال إنها العضو المسؤول عن التنفس. فنحن نأخذ الهواء من الخارج في عملية الشهيق، والهواء يدخل إلى الرئة التي تتمدد تلقائياً كي تقوم أوعيتها الدموية بتنقية هذا الهواء من ثاني أوكسيد الكربون، وبتغذيته بالأوكسيجين الذي سيدخل في الدورة الدموية. أما ثاني أوكسيد الكربون فتعمد الرئة - أو بالأحرى كلتا الرئتين - إلى إخراجه من جسمنا عبر عملية الزفير وخلال هذه العملية تنطبق الرئة على نفسها، وتتقلص وتنكمش مثل كيس يتم

إفراغه من الهواء. وقال لي الدكتور شاول إن هذه هي المشكلة الرئيسية الآن. فبسبب المرض والإلتهاب إلتصقت الرئة بالطبقة الجدارية الملتصقة بأضلاع الصدر. وباتت عملية الزفير خطرة جداً، إذ كلما حاولت الرئة أن تتقلص تمزقت أنسجتها وزاد الإلتهاب. ولهذا لا يقدر جوزف أن يتنفس إلاً بصعوبة بالغة. ولهذا يشعر بالألم في صدره.

وإلتفت الدكتور شاول إلى الدكتور زوربروخ الجالس صامتاً خلف مكتبه ثم تابع الكلام. قال إن الصور الجديدة تثبت أن هذا الإلتصاق بين الرئة وأضلاع الصدر ليس قوياً تماماً. والدكتور زوربروخ يفضل أن يعالج الأمر في البداية بدون عملية جراحية. فإذا لم ينجح عمد إلى إجراء العملية.

ـ ماذا يريد أن يفعل؟ سألته.

فأجاب أنه سيقوم بضخّ كمية من الهواء عبر أنبوب رفيع إلى داخل البلورا. فبإدخال أنبوب دقيق كالإبرة، في خلال الأضلاع إلى التجويف بين طبقتي البلورا، وباستخدام آلة خاصة يمكن إعادة نفخ الغشاء. وبالتالي إزالة الإلتصاق بين الرئة وأضلاع الصدر. ويمكننا أيضاً أن نضخ المزيد من الهواء بحيث تبقى الرئة هابطة وتتوقف عن الإنتفاخ مرة أخرى، فيما تقوم الرئة السليمة بعملية الشهيق والزفير وحدها.

ـ رئة واحدة؟ سألته.

فقال إن هذا طبيعي، طبعاً لن يستطيع الركض لكنه. . .

وقاطعته، وقلت إن العملية أفضل. لأنني أعرف أن العملية تقتضي إزالة الأضلاع التي تلتصق الرئة بها. وبالتالي تهبط الرئة.

لكنها تبقى قادرة على الإنتفاخ والتمدد عند الشهيق لأن الأضلاع قد زالت، ومعها زال خطر الإلتصاق بها.

وقلت له إنني لا أفهم لماذا بدّل رأيه، وهو الذي أخبرني كل هذا بالأمس فقط. وعندئذ أخبرني أن الصور الجديدة أظهرت ظلالاً فوق القلب، وأن عليهم إجراء المزيد من الفحوصات للتأكد. فإذا كان القلب ضعيفاً أو مريضاً فأية عملية جراحية تُجرى قد تكون قاتلة».

وفكّر جدي أنه الآن فقط يعرف لماذا هذه التفاصيل كلها: ها قد وصلنا إلى قلب جوزف. واستعاد جدي مرة أخرى العناق عند أعلى الدرج: هو يتصبب عرقاً في قميص قطني رقيق. وجورجي وجهه بارد رغم المعطف السميك ورغم الحر الخانق. فكأنه شبح. وكأنه ليس حيًّا.

وقال جورجي: «وتبين أنه بالفعل مريض بالقلب. وأن العملية الجراحية مستحيلة. وأجروا العملية الأخرى ونجحوا. هبطت الرئة. لكن الجراثيم بقيت ناشطة. وذهبنا إلى مصحّ في الجبال. وخلال سنة تحسنت صحة جوزف قليلاً. ثم تجدد المرض. وانتقل إلى الرئة اليسرى. هل أخبرك كم سنة طال تنقلنا بين المصحات والمستشفيات والأطباء؟».

توقف جورجي عن الكلام وأخذ يلف سيجارة أخرى. عادةً لا يتوقف عن الكلام إلاّ عندما يتأهب لإشعال السيجارة، أليس كذلك؟ وأحسّ جدي بالحيرة، ولم يعرف جواباً، وكان الضوء يطلع من وراء التلال، وتصاعدت رائحة القهوة من بيت قريب.

ـ «يمكنني أن أحسب ذلك. تركنا مصر في عام 1941. في

بداية السنة. بلى، في كانون الثاني. أذكر ذلك لأننا فكرنا بالسفر بحراً ثم استبعدنا الفكرة. ورجعت وحيداً إلى مصر كي أقوم بتصفية الأعمال وبيع حصتنا في الفندق، خلال عام 1947. في منتصف السنة تقريباً. وعرفت أن سائقنا القديم، إدريس، قد مات غرقاً في النيل، ذلك يعني أن الرحلة استمرت سبعة أعوام، أليس كذلك؟ أو ستة؟ المهم بعت حصتنا لإبن عمنا يونس. كان هو قد عرف بموت جوزف لأنني أرسلت له برقية من ألمانيا. طبعاً بعت حصتنا بسعرٍ أقل من قيمتها. لكن، ماذا أفعل؟ لم يكن بمقدوري أن أبقى هناك».

ـ فرجعت. قال جدي.

ـ «طبعاً لا». قال جورجي وهو يبتسم، «ماذا دهاك؟ لقد أخبرتك أن ذلك كان في عام 1947. أي قبل سنتين. هل أرجع ولا أجيء إلى هنا على الفور؟ لا. لم أرجع إلاً فيما بعد. قبل ذلك كان عليّ أن أسافر قليلاً».

وبقي جدي صامتاً. وتصاعد صياح ديكة. وتحتهما، في البيت، كانت هناك دعسات ثقيلة. وأحسّ بها جدي فوق قلبه. ولسبب ما تذكر موت بروسبر بورتاليس.

لقد حصل ذلك بعد سنة أو سنتين من ميلاد البنت الأولى. وكان جدي قد عاد كي يستقر في البلدة نهائياً بعد تلك الأشهر التي قضاها متنقلاً مع الجيش الفرنساوي بين ثكنات سوريا ولبنان. يتذكر جدي أنه كان جالساً خلف طاولة الشغل في القبو، كما يحصل دائماً حين يصل خبر ما إلى البلدة أو إلى البيت.

سمع دعسات على الدرج، ولم تكن خفيفة، لكنها كانت

تشبه دعسات جدتي. وقال له قلبه إنها جدتي لكنها ليست كعادتها، وقال إن أمراً سيئاً قد حصل. وكانت جدتي تفتح الباب الآن، وتدخل وتتركه مفتوحاً خلفها، ثم تقف في أول القبو وتنظر نظرة واحدة بإتجاه طاولة الشغل التي تقبع في عمق القبو، على مبعدة أربعة أو خمسة أمتار عنها. ثم أغمضت عينيها وأخذت تحدق بمستطيل الضوء الذي يرسمه إطار النافذة الطويلة فوق أرض القبو، في تلك المساحة شبه الفارغة التي تفصل بينها وجدي. بين أول القبو وآخره.

كان الخبر قد وصل مع تاجر أقمشة قادم من بيروت. لقد عثروا على بروسبر بورتاليس ميتاً عند شاطىء البحر. وكان يرتدي كامل ثيابه: البذلة، المعطف، الحذاء، الساعة الذهبية التي تتدلى من الصدرية، والنظارات المعلقة إلى العنق بحبل رمادي اللون ورفيع كخيط. وكان شعره ما يزال مرتباً، وكذلك ثيابه، لكن زجاجة واحدة من زجاجتي النظارة كانت مكسورة ومهشمة.

لقد وجده بعض الأولاد. وكانت الأعشاب البحرية قد إلتصقت بحذائه وبنطاله ورغم ذلك لم يفكروا للحظة أنه ميت. وكانوا يحسبون أنه على قيد الحياة وأنه فقط يتمدد هنا نائماً. ثم حين اقتربوا منه وأداروا وجهه صوبهم اكتشفوا الحفرتين حول أنفه: حفرتان كانتا مليئتين بالدود البحري الأشقر والنحيل. وتبين أنه قد غرق في البحر قبل يومين، وأن الأسماك قد أكلت عينيه. وكانت زوجته قد أبلغت خبر إختفائه قبل ثلاثة أيام، وقالت إنه عادة لا يخرج وحده، لأنه بات عجوزاً ولأنه مصاب بداء الروماتيزم في مفاصله وفي قلبه.

وجدي ثبّته الوصف المخيف والصوت الهادىء، لجدتي، خلف طاولة الشغل. كأن أيدي خفية قد إمتدت وألصقته بالغراء والصمغ إلى الكرسي التي يجلس عليها. وكان الهواء يدخل من باب القبو ويحرك خصلة شعر قصيرة معلقة فوق الأذن اليمنى لجدتي.

على السطح، بينما جورجي يقوم واقفاً وهو يسعل، تذكر جدي كل ذلك. وكان جورجي ينتهي من الكلام: «تخيل، سبع سنوات! طبعاً كانت هناك الحرب في البداية. وكان إنتقالنا بين الدول الأوروبية أمراً خطراً للغاية. لكن ما قيمة ذلك أمام المرض؟ إنها حياة غريبة».

وقال جدي إن هذه العبارة ستلاحقه دائماً. وكان جورجي ينزل السلم بسرعة ويمضي قافزاً نحو جلول الزيتون بينما يفك حزام بنطلونه. وراقبه جدي وفكر أنه ما يزال كما كان دائماً. وسأل نفسه هل مضت السنوات حقاً، ولمح جورجي يختبىء خلف جذع ثخين كي يقضي حاجته. واستدار جدي ومضى حتى حافة السطح وأخذ ينظر صوب مدخل البلدة. تأمل الكوخ المتهدم، وانعطاف الطريق إلى خارج البلدة، وأشجار الغابة الكثيفة. وكانت الشمس تخرج من وراء خط التلال البعيدة، وكان يضيع، ثم سمع صوت جدتي تنادي عليه من نافذة المطبخ، وكانت تقول له أن ينزل ويأخذ ركوة القهوة لأنها تخاف من صعود البنات على السلم الخشبي الطويل.

وفي تلك اللحظة إتخذ جدي قراره. قال لنفسه إن جورجي قد ربح. وقال إنه سيغادر البلدة. ونظر جدي إلى الطريق وقال

إنه سينتظر فقط حتى يقبض التعويض ـ تعويض التسريح من الخدمة في الجيش الفرنساوي، بعد سنوات طويلة من العمل كإسكافي في الفرقة الرابعة الشهيرة، بين سنتي 1920 و1931، ثم في الفرقة الثالثة، منذ عام 1931 وحتى عام 1946.

وقال جدي إن كل شيء قد إنتهى. والآن عليه فقط أن ينتظر. وتساءل إلى أين سيمضي. وأخذ ينزل السلم محاذراً كعادته: ظهره للحائط، ووجهه يقابل الفضاء، وقبضتاه تتشبثان بجنبتي السلم الخشبيتين.

وكان جورجي يخرج عائداً من بين الأشجار. وكان يربط الحزام ويشدّه حول خصره النحيل. وكان يبتسم.

(الفضاء)

قبل قليل توقف المطر عن التساقط. الآن أدخن الغليون وأتأمل الخارج عبر النافذة. حين كنت صغيراً كنت أجيء إلى هذه النافذة دائماً. من هنا أقدر أن أرى الطريق كلّها، والنزل، وأشجار الكرز الثلاث، وخط الغابة، والفضاء الذي يفصل النزل عن الغابة.

في تلك المساحة الفاصلة بين النزل والغابة، التراب لونه أحمر. هناك تنعطف الطريق خارجةً من البلدة في زاوية قائمة. أول مرة قاموا بتعبيد هذه الطريق بالإسفلت جاءت الريح من الوادي وحملت التراب الأحمر الكثير وتسلقت حافة الطريق ثم رمت كل حمولتها الحمراء فوق الإسفلت الأسود الجديد. جدتي

أخبرتني أن الناس كانت تأتي من الضيع المجاورة كي تتفرج على الطريق وقد غطتها الرمال ودفنتها تماماً.

الآن أتأمل ذلك الفضاء المحدّد بخط الغابة عن اليسار وبجدار النزل عن اليمين. بعد شهر واحد سينتهي الشتاء، وتعود أيام الغبار. أما الآن فالفضاء نظيف ورائق ويشبه صفحة مياه هادئة.

جدي أيضاً تأمل ذلك الفضاء قبل زمن بعيد. وكان يهبط السلم، وكان يفكر أن جورجي إخترع قصة روبي كي يقول له، عبر الكذب، الحقيقة الواحدة الأكيدة عن جوزف بابازواغلي، أي أنه قد مات منهكاً، وأمام عينيه وجه زهية.

- 4 -

إلتقيت «س.» بعد سنة ونصف السنة على وفاة جدتي زهية، أتذكر البداية جيداً لأنني كنت أحتفظ بدفتر ليومياتي خلال تلك الفترة. كانت ترتدي بلوزة زرقاء اللون وبنطلوناً أبيض وحذاءً رياضياً. ورغم الهواء البارد الذي كان يلعب في شوارع الجامعة وبين مبانيها بدت «س.» مرتاحة تماماً في ملابسها الربيعية. كنت خارجاً من إمتحان في مادة الفلسفة، وكانت الساعة تقارب الخامسة عصراً، وضوء النهار يتلاشى، والأنوار الكهربائية تُشعل للتو. وكانت هي تجلس على الحافة القريبة من «الوست هول» وإلى جانبها فتاة كنت أراها دائماً في صفي. اقتربت منهما وسألت الفتاة التي تشاركني الصف ذاته كيف وجدت الأسئلة، صعبة أم سهلة؟

لم تفهم سؤالي، أو لم تسمعه، لا أعرف، لكن «س.»، التي لم أكن قد رأيتها في الصف المذكور من قبل، بادرت إلى الجواب فوراً، فقالت إنها وجدت الإمتحان سهلاً عند بدايته وصعباً عند نهايته.

ـ أنا بالعكس، قلت لها، فقط عرفت أجوبة الأسئلة الأخيرة.

إبتسمت لي بسرعة ثم تابعت الكلام مع صديقتها. كانتا تتحدثان عن إمتحان آخر لا علاقة لي به. وإنتبهت إلى ملابسها الخفيفة، وكنت أرتدي معطفاً وأشعر بالبرد رغم ذلك، وسألتها عن إسمها.

لم تلتفت إليّ، فكأنها لم تسمعني. لكني كنت أعلم أنها قد سمعتني. وأحسست بالإرتباك، والفتاة الأخرى كانت تبتسم إبتسامة مزعجة ولا نهاية لها. استدرت وأخذت أمشي مبتعداً. وسمعت صوتاً خلفي ـ بلى، صوتها ـ لكني لم ألتفت.

اللقاء الثاني كان بعد يومين. كانت الحصة قد بدأت، وكان الأستاذ يتكلم عن هيجل، وكنت أقرأ في كتاب لخورخيه لويس بورخيس. ولم تكن هي في الصف. فجأة دخل الهواء القوي إلى داخل الغرفة فرفعت رأسي ورأيتها تقف في الباب وتبتسم للأستاذ ثم تشق طريقها بين الكراسي وتستقر إلى يميني. وكانت، قبل أن تصل إلى حيث جلست أخيراً، قد تجاوزت أربعة أو خمسة مقاعد خالية.

ـ ماذا تقرأ؟ سألتني وهي تميل نحوي.

إلتفت فرأيت أنها كانت تربط شعرها، وترتدي ثياباً شتوية. لا أذكر الثياب. لكن أعتقد أنها كانت تربط شعرها بربطة زرقاء اللون. شكل الربطة أتذكره جيداً لأنه ذكرني بالفتيات الصغيرات في أفلام الرسوم المتحركة: ربطة يشبه شكلها وردة معقودة في مؤخرة الرأس. أما لونها فلست متأكداً منه. لأنني اكتشفت فيما

بعد أن «س.» واللون الأزرق يترابطان في ذاكرتي على نحو خاطىء تماماً في الكثير من الأحيان. المهم، كان ذلك لقاءنا الثاني. سألتني ماذا أقرأ، فقلت لها إنني أقرأ قصة، وعدت إلى القراءة. وقبل نهاية الحصة بدقائق وقفت معتذراً من الأستاذ وقلت إن لديّ موعداً مع طبيب الأسنان وغادرت الغرفة. نزلت درج النايسلي ومضيت بإتجاه مبنى «البنروز» وصعدت إلى الطابق السادس.

وقفت عند زاوية الشرفة القريبة من المصعد وإتكأت إلى الحائط القصير وأخذت أتفرج على الأشجار، وعلى البحر، وعلى الناس الذين يتنزهون على كورنيش المنارة. وبين الأشجار الكثيرة كانت تظهر القبة النحاسية للمرصد الفلكي الذي بناه فانديك قبل زمن بعيد. وتأملتها طويلاً، وكانت الريح باردة، وفكرت أنني سأصاب بنزلة برد، وعبرت الشرفة ـ الممر حتى آخر الطابق. كانت غرفتي هي الغرفة ما قبل الأخيرة في صف الغرف الطويل. وللدخول إليها كان يتوجب عليّ أن أستخدم مفتاحين كي أفتح قفلين. القفل الأول يُثبت سلسلة رفيعة، وهو قفل خارجي. والقفل الثاني هو القفل الأصلي للباب، ولا يشكل عائقاً أساسياً أمام دخول الآخرين إلى الغرفة لأن جميع أقفال هذه الغرف تتشابه. وأنا عادة لا أستخدم هذا القفل أبداً، لكن شريكي في السكن يفعل ذلك.

فتحت القفل الأول، ثم وضعت المفتاح في قفل الباب وحاولت أن أبرمه. لكن، دون جدوى. حاولت عدة مرات، وبعد كل محاولة كان الفشل يبدو أشد وطأة.

كل أربع غرف في هذه البناية لها حمام مشترك واحد يقع في

الوسط. وبالتالي يقدر المرء أن يدخل إلى غرفته عبر بوابة الحمام، فيما لو كانت إحدى الغرف الثلاث الأخرى مفتوحة. الغرفة القريبة مني كانت موصدة. درت إلى الجانب الآخر من المبنى. وجدت غرفة من الغرفتين مفتوحة. قرعت الباب ثم دخلت. كي أدخل كان عليّ أن أجرّ الباب إلى اليسار. إنزلق الباب بسهولة. كان هناك شخص نائم على سرير من السريرين. دخلت وأغلقت الباب خلفي ثم عبرت الخطوات القليلة حتى بوابة الحمام. فتحتها أيضاً بهدوء وخرجت من غرفة الشاب النائم إلى الحمام ثم أغلقت البوابة خلفي. وقفت للحظة هناك وكانت بوابة الحمام التي تخص غرفتي في مواجهتي الآن. أغمضت عينيّ وقلت: «فقط يا ربّ، هذه الأمنية، إجعل ألاّ يكون الباب موصداً من الداخل».

اللقاء الثالث كان في اليوم التالي. كانت خارجة من مكتب البريد وفي يدها مظروف أزرق اللون. بلى، أزرق، وهذا متأكد من لونه. لأنني في تلك اللحظة قلت لها شيئاً عن غرابة هذا اللون.

ـ لكن لماذا تجده غريباً؟ سألتني.

فأجبتها: «لست أنا من يجده غريباً. إنه هو لون غريب. جميع الحضارات القديمة مثلاً كانت تحسب أن اللون الأزرق هو لون الآلهة».

كنت أكذب بالطبع، أما هي فلم تنتبه، ورفعت يدها ولمست منخارها الدقيق بإبهامها. وكانت تبدو كأنها تتأمل ما قلته لتوي.

فتابعتُ كذبتي: «ربما كان ذلك لأن لون السماء أزرق. والبحر أيضاً».

وكانت قد توقفت عن لمس أنفها، ورفعت رأسها قليلاً، ونظرت إليّ نظرة سريعة.

ثم أغمضت عينيها: «أنت غريب جداً».

عندئذ أخبرتها حكاية المرأة ذات المعطف الرمادي. وكنت أحكي كأنني لا أحكي لها، وكأنني أتذكر الحكاية بصوتٍ عالٍ، ونسيت أين أنا، وكان الأمر كما لو أنني كنت ممدداً في العتمة وقد أغمضت عينيّ واستسلمت لنعاسٍ سيأخذني إلى حيث لا أدري.

من أين جاءتني تلك القوة كلها؟ ربما من الباب الذي حين دفعته تحرك على الفور فبانت من خلفه غرفتي وظهر لي سريري. بالأمسِ فقط.

وبعد ثمانية أيام إصطحبتها إلى البلدة، وأخبرتها...

(أول مرة)

«هذا النزل المهجور له حكاية. لقد أخبرتك عن جدتي لكني لم أخبرك أبداً أنه لولاها لما كان هذا النزل موجوداً. ولاحظي أين هو: قبالة نافذة غرفتها تماماً. أتعرفين، بعد أن ماتت كنت أجيء وأجلس هنا وأنظر إليه، إلى نوافذه، إلى الحيطان، إلى الأباجور، وأتخيل أنني هي. لا، كيف أصف ذلك، لم أكن أتخيل، كنت أحس من داخلي أنني جدتي وأنها لم تمت وأنها ليست مدفونة في الغابة وأنها جالسة في مطرحي تنظر

عبر النافذة كما فعلتُ دائماً. عبر هذه النافذة، إلى النزل.

فيما بعد لم أعد قادراً على الاحتمال. قررت أن أعود إلى الجامعة. لكنني لم أكن قادراً أيضاً على العودة إلى مبنى الداخلي. لذلك استأجرت شقة. في الشقة بقيت بضعة أشهر. خلال تلك الفترة رأيت المرأة التي أخبرتك عنها. بعد ذلك عدت إلى الداخلي، إلى الغرفة نفسها. وفي كل هذه الأماكن التي تنقلت بينها كنت أحلم دائماً المنام ذاته. هل تعرفين ماذا أحلم؟ أحلم أنني أستيقظ من النوم فأرى أنني أنام على هذا السرير النحاسي وأنني في غرفة جدتي ـ بلى، هنا، وماذا أفعل؟ أنزل عن السرير وأجيء إلى هذه النافذة وأنظر إلى النزل وأحس بالأمان.

يسمونه في البلدة نزل الغريب، أليس جميلاً هذا الاسم؟ وحكايته أجمل».

ـ أخبرني إياها، قالت لي.

ـ فيما بعد، قلت لها.

ـ والآن؟ سألتني.

ـ الآن نحضّر قهوة.

كان الضوء قد تلاشى في الخارج. أغلقتُ الستائر وأمسكت يدها وقلت لها تعالي. أضأت لمبة الغرفة ثم لمبة الممر القصير ونزلنا الدرج الخشبي معاً. أضأت لمبة البهو ثم لمبة المطبخ. كانت تتحرك خلفي كالنسيم. كنت أحس بحضورها الخفيف وراء ظهري وإلى جانبي. وكنت أحاول أن أفكر بكلمة أخرى، لكن دون جدوى.

كانت كالنسيم.

بينما نشرب القهوة قالت لي: «أتعرف، أنا عادة لا أشرب القهوة. خصوصاً إذا كانت بدون سكر».

- «هذا واضح». أجبتها مبتسماً. وكنت قد شربت فنجاني الثاني وهي لم تشرب بعد الشفة الثالثة من فنجانها الأول.

- ألا تشتاق لأهلك؟

- بلى، أحياناً. لكن هذا ليس مؤلماً كما تتصورين. فأنا أصلاً لم أربَ بينهم، بل هنا عند جدتي. حتى إخوتي بالكاد أعرفهم. أخي مثلاً كل ما أعرفه عنه أنه يعيش بين حيوانات الكنغر وإنه متزوج.

- الكنغر؟

- الكنغر هو الكنغارو، الحيوان الذي يحمل طفله في جيب في بطنه.

حين تبتسم أرى في عينيها ضوءاً. كأنها لا تبتسم وحسب، وكأنها تستعد للنهوض ولإلتقاط شيء خفيف وخفي يحوم في الفضاء بيننا.

- أنت تعتقدين أنني أتكبر حين أقول إنني لا أشتاق لهم، أليس كذلك؟

- لا. ليس كذلك.

تأملت يديها. كانت الطاولة بيننا. طاولة المطبخ التي هي طاولة الطعام، والتي حين أريد الكتابة أقوم بجرّها إلى البهو القريب.

- لكنك تشتاق لجدتك. قالت لي.

نهضتُ وفتحتُ حنفية الماء وملأتُ كوباً لي وآخر لها. رجعت إلى الطاولة وجلستُ على الكرسي مستقيم الظهر. وأشعلتُ سيجارة وقلتُ لها: «سأخبرك حكاية».

كانت تلك أول مرة أحكي فيها حكاية، من حكايات جدتي، لأحد. وكنت أعلم أنني أحكي عني، ومرة أخرى تساءلت من أين تأتيني كل هذه القوة.

وكنت أفكر بأن أحكي لها عن الأخوين بابازواغلي. ووجدتني أحكي لها عن الفراشة الزرقاء. وعندما إنتهيت من الحكاية رأيت في عينيها شيئاً يشبه قطرات الندى. ومدّت يدها وأمسكت كوبها وشربت منه قليلاً. وأشعلتُ سيكارة أخرى، وسألتها هل أشعل لها واحدة.

لم تقل شيئاً وكانت تنظر صوب المجلى. والتفتُ أنا أيضاً وراقبتُ نقطة الماء تقع من الحنفية وكان ضوء اللمبة ينعكس على الصواني الفضية المرتبة فوق الرف المنخفض. ونظرت إلى «س.» وسألتها بماذا تفكر. فبقيت صامتة لكنها أدارت عنقها وحدقت إلى نقطة ثابتة فوق الطاولة التي بيننا.

ـ هل ستكون حكايتنا أيضاً حزينة؟

سألتني ذلك دون أن تنظر إليّ. وتذكرت المشهد قرب مكتب البريد قبل أسبوع ويوم واحد. وكيف نظرت إلى الأرض وقالت لي: «أنت غريب جداً». وتذكرت أيضاً ما جرى قبل أربعة أيام وكنا نتناول الطعام في الشقة حيث تقطن مع صديقتين من صديقاتها ـ إحداهما الفتاة التي كانت معها على «الوست هول» حين رأيتها للمرة الأولى.

ماذا جرى قبل أربعة أيام؟ كانت تسكب لي بعض سلطة الخضار حين رأيت آثار حرق على معصمها الأيمن. كان حرقاً قديماً لكن قاسياً، وكان ذلك ظاهراً من تجعد الجلد ومن لونه البنيّ الكالح. كانت ترتدي قميصاً أبيض طويل الكمين لكنها حين إنحنت قليلاً، وهي تتطاول كي تصل إلى صحني، بدت منزعجة جداً. فجأة انتبهتُ إلى الكم الذي إنحسر عن بقعة بنيّة اللون كانت تغطي معصمها.

أمسكت ملعقة السلطة الكبيرة من يدها، وطلبت منها أن تجلس لأنني أحب أن أسكب طعامي بنفسي. وكانت لهجتي باردة.

ـ ما بك؟ سألتني.

ـ أنت مصابة بداء الجذام. هذا مرض معدٍ وقاتل.

صعد الدم إلى وجهها، كانت على حافة الصراخ. وقالت لي بحدة: «هذا حرق. سقط عليّ إبريق ماء مغلية حين كنت صغيرة. هذا ليس جذاماً».

وكانت الآن قد فكّت زر الكمّ ورفعته حتى المرفق. وبدا واضحاً أنها قد قررت إنهاء الوليمة وإنهاء...

إبتسمت لها: «إذا كنت تعرفين أنه فقط حرق فلماذا تستحين أن أراه؟».

بدت مثل طفلة ضائعة. مددت يدي وتلمست البقعة البنيّة. لم يكن ملمسها خشناً لكنه لم يكن ناعماً كباقي اليد. إنحنيت وقبلتها. قبّلت معصمها ثم قبّلت أصابعها ثم قبّلت المعصم ثانية.

ونظرت إليها وقلت إن الحرق قد زال الآن، وأن إبريق الماء

لم يقع على يدها أبداً، وأنها فقط حلمت بذلك حين كانت صغيرة.

طوال الفترة المتبقية من ذلك النهار ظلّ وجهها حزيناً. حين تركتها ليلاً مضيتُ وأمام عيني صورة وجهها. تلك الصورة كنت أراها الآن مرة أخرى، فيما هي تحدق إلى طاولة المطبخ التي بيننا.

بقينا صامتين. خلفنا كانت النقطة تسقط من الحنفية بإنتظام. في الخارج كانت البلدة نائمة. بين حين وآخر كنت أسمع نباح كلب. وفكرت أنها ستكرر سؤالها مرة ثانية، وكان ما يزال بمقدوري أن أسمع صداه:

ـ هل ستكون حكايتنا أيضاً حزينة؟

لم تكرر سؤالها، ورفعت رأسها ونظرت إليّ. قمنا واقفين ثم صعدنا الدرج الخشبي إلى غرفة جدتي. كنت أضع ذراعي اليمنى حول كتفيها. وكان رأسها يميل عليّ، وشعرها يلامس خدي وعنقي.

في تلك الليلة نامت قربي على سرير جدتي. وحين استيقظت صباحاً اكتشفت أننا قضينا الليل متعانقين ونحن نرتدي كامل ثيابنا. حتى أحذيتنا لم نخلعها. قبّلتها على أنفها الصغير، ففتحت عينيها. اللون الأبيض حول بؤبؤيها الحالكي السواد كان يميل إلى اللون البنفسجي. قلت لها إن عينيها تشبهان عيون الأطفال. وضعت يدها في شعري. كانت تحب أن تدخل أصابعها في شعري.

قالت لي إنها حلمت أنني كنت معها في المدرسة. قالت

إنها رأتنا نركض معاً في الملعب، وإنها كانت تعرف أني سأبقى معها دائماً. حتى بعد أن نكبر، وبعد أن ندخل الجامعة، وبعد أن. . .

تلامس أنفانا. قلت لها إنها تملك أجمل وأصغر أنف في العالم. ضحكت وقالت إنني أقول هذا لأن أنفي ليس صغيراً.

ـ إنه صغير، قلت لها، لكنني كسرته حين كنت صغيراً.

وأمسكت يدها وجعلتها تلمس عظمة أنفي المكسورة.

ـ كيف كسرته؟ سألتني.

ـ كنا نلعب.

ـ ووقعت؟

ـ لا. كنا نلعب مصارعة. وضربني واحد على أنفي بالحجر.

ـ الكلب!

كانت غاضبة. قلت لها إنها هي أيضاً غريبة. وكان الضوء يدخل ضعيفاً عبر الستائر. كأنه مياه ترشح من إبريق فخار.

سألتني: «لماذا لا تنام معي؟».

ـ لا أعرف. خفت أن تكوني. . .

اسكتتني. كانت تقبلني على وجهي. وضعت يدي على باطن كتفها ورفعتها عني قليلاً ثم ملت فوقها وقبلت عينيها. فيما بعد ستقول لي دائماً إنها تحب كيف أقبل عينيها. لا أعرف كيف تخلصنا من ثيابنا لكننا قمنا بذلك دون أن نتوقف عن التلامس. وحين دخلت فيها كان جسمي منتصباً وأحسستني أصعد إلى حيث لا أعلم. وكان الأمر كما لو أنني قد ضعت في فضاء بعيد،

وأخذت أمضي أبعد فأبعد، ثم جاء الموت ولبثت لبرهة معلقاً بين النجوم، وكان هناك صوت عميق يخرج من داخلي، وكان يشبه البكاء، ثم وجدتني أسقط كأنني أقع من فوق الغيوم، كأنني أتبعثر، وأخذت أتمسك بحواف جسدها، وكانت ما تزال تتحرك تحتي وحولي. وغمرني الفزع لبرهة خاطفة، ثم تراجع هذا الإحساس إذ عانقتني ومكثْت دون حراك، وهي تلامس كتفي بشفتيها. ولبثنا هكذا لوقت طويل. ثم وجدتني أنتصب داخلها مرة أخرى وكانت هي تضحك ضحكات صغيرة في أذني. وقلت لها إنني أحبها، وكانت ترفع وجهي بيديها الإثنتين كي تنظر إليّ وكي تخبرني أنها كذبت عليّ ولم تخبرني إلاَّ نصف المنام الذي رأته ليلاً.

لأنها لم تحلم أننا نلعب في مدرستها بل نختبىء في المخزن التابع للإدارة وننام على فرشة قديمة، فيما الناظر والأساتذة يبحثون عنا في الخارج.

ـ قصة حقيقية؟ سألتها.

ـ الآن صارت حقيقية. أجابتني.

وبقينا في السرير حتى العصر. وعند المساء خرجنا وجلبنا من الطعام ما يكفينا مؤنة شهر وأكثر.

(الغزل)

بعد مضي أسبوع كامل ويوم واحد على عودة جورجي بابازواغلي إلى بلدتنا، وصلت الجرافة تتبعها شاحنة كبيرة. وكان جورجي واقفاً مع جدي عند مدخل البلدة يدخنان السجائر

صامتين. فرمى جورجي السيجارة من يده وأشار إلى سائق الجرافة، ثم قفز ومضى نحو الكوخ المتهدم.

وبدأ العمل.

خلال ساعات قليلة أزالت الجرافة الكوخ وإقتلعت الجذع القصير الذي بقي من شجرة التين. وبالشاحنة نُقل الركام إلى خارج البلدة، فيما وصلت ثلاث شاحنات أخرى متبوعة بآلة حفر عملاقة.

طوال الأسبوع التالي عملت الحفارة الضخمة على تحطيم الصخور لتسهيل عمل الجرافة. وكانت الشاحنات تصل تباعاً، فتفرغ حمولتها من الرمل والبحص، أو الخشب والحديد، ثم تغادر البلدة، محملةً بأكوام الأتربة والصخور المستخرجة من رقعة الأرض حيث وقفت ذات يوم تينة خضراء وكوخ مصنوع من الطين.

كانت ورشة العمال التي استقدمها جورجي بابازواغلي من عاليه تعمل ليلاً ونهاراً. في تلك الأيام كان هذا يعتبر أمراً خارقاً. أكثر من خمسين عاملاً يتناوبون على تشغيل خلاطة الإسمنت وإعداد قوالب الصب وتثبيت الأساسات. وأربعة معلمي بناء يشرفون على كل شيء. وفي الليل كانت الأضواء الكاشفة تنير فضاء البلدة، بينما هدير المحرك الكبير يصم الآذان.

ونصب العمال ستاراً وسط الساحة، ووزعوا طاولات ومقاعد، وكان جورجي بابازواغلي قد إبتاع ثلاثين خروفاً وأمر بذبح ثلاثة منها في كل ليلة. وأوصى على نبيذ أحمر، وعلى حلويات.

جدي سأله: «لماذا كان هذا يا جورجي؟ هل ربحت أموالك بهذه السهولة كي تبذرها على الولائم؟».

فإبتسم جورجي: «دون هذا التبذير يا سليم لن تسمح لي البلدة بليلة عمل واحدة».

خلال عشرة أيام فقط ارتفعت جدران الطابق الأول. واستلزم بناء الطابق الثاني أسبوعاً إلاّ يوماً واحداً. أما الطابق الثالث فتأخر العمل فيه قليلاً لأن القالب الذي تمّ تركيبه للشرفة كاد أن ينهار. ورغم هذا التأخير الطارىء، لم تغب شمس النهار السادس والثلاثين من بداية ورشة البناء إلاّ وكانت الشاحنات تغادر بلدتنا، محملةً بخلاطات الإسمنت وبعربات الرمل وبجميع الذين عملوا في الورشة.

وخلال اليومين التاليين انتهى المعلم إلياس نعمة عرمان البيروتي من تركيب أباجور الشبابيك. وكان قد طلاها بلون أخضر غامق، فبدت وسط الجدران الصفراء، كأنها تتألق بالضوء.

أمام مشهد النزل المكتمل وقف جدي منبهراً، عند ظهيرة نهار صيفي حارق، يحاول أن يتذكر أين رأى هذا المبنى من قبل فلا تسعفه الذاكرة. وكان جورجي الواقف إلى يمينه يبتسم، وحين تكلم أخيراً قال لجدي: «عليك أن تنسى أنك في البلدة. وعليك أن تتخيل أن الأباجور لونه رمادي وليس أخضر. والآن أنظرْ جيداً مرة أخرى، أنظرْ وقلْ لي ماذا ترى؟».

كانت الشمس خلفهما. وإمتد الظلاّن الطويلان حتى البوابة الخشبية الكبيرة. وهبّ هواء خفيف.

«سرايا البرج!» أجاب جدي مذهولاً. «إني أرى سرايا البرج».

(جملة إعتراضية)

«أجاب جدي مذهولاً».

«مذهولاً».

كي أفهم هذه الكلمة جيداً أخذت أكررها على صوت عالٍ: مذهولاً، مذهولاً، مذهولن، مذهونن...

بالطبع لم أفهم شيئاً. لكن كيف نصف، كيف أصف، جدي في تلك اللحظة؟ ما هي الكلمات المناسبة؟ لقد كان يكتشف، ينتبه، للمرة الأولى إلى حقيقة غريبة جداً: فهذا المبنى الذي عاد جورجي بابازواغلي بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الغياب كي يبنيه عند مدخل بلدتنا، إن هذا المبنى، النزل، هو ببساطة نسخة طبق الأصل عن السراي في بيروت. أو عن السراي التي كانت في بيروت.

المهم: لماذا يريد جورجي بابازواغلي أن يبني نزلاً يشبه في شكله الخارجي تلك السراي؟

وهل شكّل هذا السؤال سبباً من أسباب ذهول جدي في تلك اللحظة التي مضت قبل زمن بعيد جداً؟ أم أن ذهوله كان ببساطة صدمة عين تبصر فجأة قلعةً منقولة من مطرحها الأصلي إلى مطرح آخر بعيد ولا يشبه المطرح الأول في شيء.

لكن، لماذا لا يشبهه؟ ألأن ذلك المكان كان في بيروت، والمكان الجديد هو في الجبل؟

كلا، لا يشبهه لأن سنوات كثيرة مرّت، لأن زهية باتت أمّاً لأربع بنات، ولأن جوزف بابازواغلي قد مات.

ولا يشبهه لأن جدي تبدّل ولأنه لم يعد ذلك الفتى الذي وقف قبل زمن بعيد أمام سراي البرج وهو يودع صديقيه فيما يخطط للزواج من حبيبة أحدهما.

(عن البدايات)

أتذكر أن أولى محاولاتي في الكتابة كانت عن النزل وعن الأخوين بابازواغلي.

كان ذلك خلال سنتي الأولى في المدرسة الداخلية. كنت للمرة الأولى أعيش بعيداً عن جدتي. وكان يقطن معي في غرفة واحدة كبيرة سبعة طلاب آخرون. ثلاثة منهم في صفي ذاته ـ الصف الأول الثانوي.

كان فراشي قاسياً. وفي الليل كنت أضجر من التقلب فوقه فأقوم وأتلمس طريق إلى الحمام ثم أجلس هناك وأضيء اللمبة الصغيرة، وأفكر. وذات مرة أخذت معي دفتراً وقلماً إلى الحمام وبدأت أكتب مسرحية.

بلى، كتبت في رأس الصفحة: «مسرحية نزل الغرباء».

الآن أتذكرها كما يلي:

رجلان يقفان على سطح بيت عند غياب الشمس. الأول يُدعى جرجي. الثاني سليم. جرجي يشير إلى كوخ متهدم ويدخن سيجارة.

جرجي: غداً تأتي الجرافة.

سليم: أحقاً تريد أن تبني نزلاً هنا؟

جرجي: بالطبع.

سليم: لكن السياح ينزلون في بحمدون أو في عاليه ولا ينزلون هنا.

جرجي: لا ينزلون هنا لأنهم لا يرون نزلاً هنا.

سليم: لا يرون نزلاً هنا لأننا أصلاً بعيدون عن الطريق العام.

جرجي: لا تخف. هناك ناس لا يعرفون كيف يمشون على الطريق العام لوقت طويل.

سليم: من هؤلاء؟

جرجي: إنهم الغرباء. صدقني، حين تسافر كما فعلت أنا وجوزف، تكتشف أن العالم مليء بهم. وأنهم لا يبحثون إلاَّ عن غرفة وسرير. ولأن هذا نزلهم فهم سيأتون إليه.

سليم: وإذا لم يأتوا؟

جرجي: أكون قد بنيت لنفسي بيتاً مليئاً بالغرف. وأبواب الغرف الكثيرة ستمنع عني الإحساس بالوحدة. وهذا ليس أمراً سيئاً.

تغيب الشمس. في العتمة نرى فقط ضوء سيجارة. ثم يتلاشى هذا الضوء أيضاً.

(النزل)

في البداية عاش النزل حياة صاخبة. وخلال تلك الفترة اكتشفت جدتي التحوّل المفاجىء الذي طرأ على شخصية زوجها. فجأة تبدّل جدي. لم يعد رقيقاً، لا معها ولا مع البنات، وبات يغضب لأقل كلمة، ويُفضل أن يتناول طعامه وحيداً.

ثم حصل ذلك الشيء. كان جورجي يقيم في مساء كل سبت حفلة ساهرة في الباحة التي وراء النزل. وكان هناك ستار مائل منصوب عند طرف الباحة الغاية منه ردّ هواء الوادي عن الساهرين. وكانت هناك كلوبات معلقة من عواميد خشبية مثبتة بين الطاولات والكراسي الكثيرة. وكان المكان يزدحم بالناس القادمين من البلدات المجاورة، وبآخرين غرباء يقطنون في النزل.

وذات سبت قام جورجي بدعوة جدي وعائلته إلى الحفلة، وأصر على حضور الجميع وقال إنه سيزعل إن لم يحضروا. وكان قد وجه الدعوة نفسها مراراً وتكراراً من قبل. وفي هذه المرة رضخ جدي.

وحصل ذلك الشيء. ذهب جدي مع جدتي ومع بناتهما الأربع وجلسوا على طاولة واحدة مع جورجي بابازواغلي. وجاء الصبي أسعد وسكب عرقاً زحلاوياً في الكؤوس الثلاث، وكانت جدتي تبتسم، وجدي أيضاً. أما جورجي فكان وجهه غارقاً في الظل لأن الكلوب الأقرب إلى الطاولة كان وراء ظهره.

وقال جورجي: لذكرى جوزف.

ورفع كأسه عالياً. فقام جدي وغادر الحفلة. فلحقت به جدتي والبنات. وبقي جورجي وحيداً.

وبعد أيام معدودة، وكان أيلول قد إنتصف، نزل جدي إلى بيروت عند الصباح بعد أن قال لجدتي إنه سيعود ظهراً. وعند الظهيرة وضعت جدتي طعام الغذاء وجلست مع خالاتي في إنتظاره. وحين غابت الشمس، وكان الطبيخ قد بات بارداً، وجدي لم يرجع بعد، أخذت جدتي ترتجف، فقامت واقفة، ومضت إلى الحمام وأغلقت الباب على نفسها.

وهكذا إختفى جدي. وفي صباح اليوم التالي، وكان خبر ذهابه قد انتشر في البلدة، جاء جورجي بابازواغلي وأعطى جدتي صحيفة «النهار» الصادرة قبل يومٍ، ثم جلس إلى طاولة المطبخ ـ نعم، هذه الطاولة التي أكتب عليها الآن ـ وقال لها: «إقرأي الخبر الذي وضعت فوقه إشارة زرقاء».

إنها صحيفة الجمعة 15 أيلول 1950. العدد 4605. صفحة «حوادث النهار». حاولت جدتي أن تقرأ. قرأت جملاً مبعثرة: «نُشرت أمس لائحة أسماء العمال الذين عليهم أن يتقدموا إلى مكتب تصفية تعويضات العمال المسرحين من الجيش الفرنسي في وزارة الدفاع الوطني لتقاضي التعويض العائد لكل منهم في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة 15 أيلول. . .».

توقفت جدتي عن القراءة، سألت جورجي بصوت ثابت: «في أي يومٍ نحن؟».

ـ السبت 16 أيلول. أجاب جورجي وهو ينظر إلى أصابعه.

عادت جدتي إلى الصحيفة. كانت هناك أسماء كثيرة.

قرأت: «ليون مارديريان... جميل تامر... طوبيا حنا...».

قالت: اسمه غير مكتوب.

أجابها: إقرأي بتمهل.

عادت إلى الصحيفة: «ليون مارديريان... انطوان بشارة... جميل تامر... سليم...».

بلى: سليم حداد.

إنهارت على الكرسي. لقد رحل.

(بعد ذلك...)

قبل إنتهاء السنة التالية، سنة 1951، عاد أبي ـ الذي لم يكن أبي آنذاك ـ من أفريقيا، وطلب يد أمي ـ التي أيضاً لم تكن أمي آنذاك ـ من جدتي. ودامت خطوبتهما أشهر قليلة ثم تزوجا. وإلتقطت في الإحتفال صور ملونة، وليس صور باللونين الأبيض والأسود فقط، كما في حفل عرس جدتي قبل أكثر من ثلاثين عاماً.

في صيف عام 1952 إنفجر قسطل الحمام. فإقترح جورجي بابازواغلي على جدتي أن تستغل فرصة وجود ورشة عمل في البيت لإضافة غرفة فوق السطح، وحمام تابع للغرفة، ودرج داخلي يصل بين الطابقين.

وافقت جدتي. قال جورجي بابازواغلي إن حجارة الباطون ستكون هدية منه. وأنه سيأتي بمعلم شاطر من بيروت لتركيب الأبواب والنوافذ.

قالت خالتي ـ واحدة منهنّ: لماذا توافقين؟ لماذا نحتاج إلى غرفة أخرى؟

أجابت جدتي: من أجل الصيف. إننا نموت حراً هنا خلال تموز وآب. فوق أبرد.

قالت خالتي: لكن من هو جورجي بابازواغلي كي يأتي كل نهار ويتناول الطعام معنا ويقترح هذه الإقتراحات؟

أجابت جدتي: إنه صديق العائلة. ولقد كان صديق والدك.

ـ صديق والدي؟ هو؟ كان؟

كان.

جدي كان.

في 15 أيلول 1950، إختفى من حياة بلدتنا. وبعد ثلاث سنوات جنحت الباخرة الفرنسية «شامبليون» أمام شاطىء الأوزاعي. كان على متنها 150 راكباً، بالإضافة إلى الطاقم. وكانت قادمة إلى مرفأ بيروت من أوروبا. نجا من الركاب 88 شخصاً. وغرق ستون. والطاقم نجا بأكمله.

جورجي بابازواغلي قرأ الخبر في الصحيفة. كانت الصحف تصل إلى النزل كل صباح. إنه يحافظ على هذه العادة منذ أيام الفندق في الإسكندرية. فهو يعلم أن الغرباء يأنسون دائماً لقراءة الصحف في كل صباح.

وبعد أن قرأ الخبر صعد جورجي إلى غرفته القائمة في وسط الطابق الثالث وأقفل على نفسه البوابة ثم جلس أمام المرآة الكبيرة وأخذ يحدق في عينيه. كان يفكر بأخيه جوزف.

وقربه، على السرير، كانت الصحيفة مجعوكة: صورة بحر وقوارب وسفينة ضخمة مائلة على جنبها، وتحت الصورة لائحة بأسماء بعض الغرقى.

واسم سليم حداد كان بينهم.

(جورجي بابازواغلي)

أتخيله دائماً في غرفته. يتكلم مع صورته في المرآة. أتخيل أن جوزف لم يمت في مصح في ألمانيا. ربما مات جوزف على متن السفينة. ما اسمها؟ المساجيري. ألم يقل جورجي لجدي إنه أصيب بالمرض وأن جوزف أخذه إلى المستشفى الإنكليزي آنذاك؟ ماذا لو كان يكذب؟ ماذا لو أن جوزف كان هو الذي مرض آنذاك؟ ماذا لو أن جوزف مات منذ البداية، منذ بداية الرحلة؟ هل كانت الأشياء ستتبدل عندئذ؟

وإذا كان جورجي يكذب فلماذا لا يكون قد كذب بخصوص السلّ أيضاً؟ أو ربما لم يكذب تماماً، فربما كان هو من أصيب بالسلّ ومضى إلى العلاج في أوروبا وشفي.

لكنه، فيما كان يتعالج هناك، قرّر أن ينتقم لأخيه الذي مات قبل ثلاثين سنة تقريباً. كيف مات؟ ربما بنزلة برد، ربما بالسلّ أيضاً. لكن الأكيد أنه مات مكسور القلب.

وكيف ينتقم جورجي؟ بأن يفعل بحياة جدي الأمر ذاته الذي فعله جدي بحياة جوزف. أليس هذا ممكناً؟

أما ما جرى حقاً، فإن جورجي قام بإقفال نزله بعد تلك

السنة ـ سنة موت جدي ـ وصرف جميع العاملين واستبقى فقط الصبي أسعد. لأنه كان محتاجاً إلى شخصٍ ليجلب له الطعام من السوق.

قال للصبي أسعد: لا أريدك أن تفتح البوابة الكبيرة أبداً بعد الآن. ولا النوافذ. أدخل وأخرج كما تشاء، لكن فقط من بوابة المطبخ الخلفية.

هزّ الصبي أسعد رأسه.

أمام المرآة يجلس جورجي ويتكلم مع صورته:

ـ ها أنا وحدي يا جوزف، وأنت وسليم هناك. هل تفكران بي كما أفكر بكما؟

في المرآة يرى وجهاً أصفر. هل هو وجهه أم وجه جوزف؟

هذا سؤال آخر لرواية أخرى. ماذا لو كان هذا الرجل جوزف لا جورجي؟ مات جورجي في الخارج فعاد جوزف وكذب على الجميع وقال إنه يدعى جورجي.

أما في هذه الرواية فإن الجالس أمام المرآة هو، على الأرجح، جورجي.

وجورجي يكرر مرة أخرى: هل تفكران بي؟

وفي المرآة يرى، وراء الوجه الأصفر، الخزانة الكبيرة، فيقف ويستدير ويذهب إليها ويفتحها ويخرج معطفه الأخضر. كيف مرت السنوات؟

يخلع ثيابه ويرتدي المعطف. ينظر إلى حذائه. إنه متسخ. ونعله ذاب عند الجوانب. يمسح الحذاء بفوطة.

يبتسم: «غداً سأجلب مطرقة ومسامير، وسأجلب نعالاً وأتحوّل إلى إسكافي!».

بعد تلك الليلة لم يعش طويلاً. ظلّ على قيد الحياة قرابة السنة. اشترى حماماً، وبنى لها بيتاً صغيراً فوق السطح. وعند كل صباح كان الصبي أسعد يجلب له الحليب الطازج والخضار. لم يكن يجلب له اللحم أبداً. لأن جورجي كان يريد أن يأكل الأشياء ذاتها التي أكلها جوزف في المصح. وكانت جدتي تجلس في غرفتها قبالة النافذة وتراقب سرب الحمام يحوم فوق النزل. وأحياناً كانت ترى ذراعاً ترتفع نحو السماء، أما وجه الرجل وجذعه فكان يبقى محتجباً خلف السور الحجري لسطح النزل. جورجي يكشّ الحمام وهي لا ترى وجهه، لكنها ترى الذراع التي تحمل قصبة وترى لون المعطف الذي يرتديه صاحب الذراع.

تنتظر خروج الحمام من البيت الصغير القائم فوق سطح النزل كل عصر. وتنتظر الذراع والقصبة التي ترتفع فجأة.

طوال سنة. كل يوم. كل عصر. ربما في الأيام الماطرة أيضاً.

ثم ذات نهار تنتظر وتنتظر لكن الشمس تغيب دون أن تخرج الحمامات ودون أن ترتفع القصبة كي تكشّها.

فتعرف أن جورجي بابازواغلي قد مات وحيداً في نزله المهجور.

(الوصية)

أخبرت «س.» عن الوصية. قلت لها إن جورجي بابازواغلي ترك وصية مكوّنة من جزءين. الجزء الأول يتعلق بجثته. فلقد

طلب أن يُحفر له قبر في الطابق السفلي من النزل وحدّد الغرفة التي يريدها مسكنه الأخير. فللداخل من بوابة النزل الكبيرة هذه الغرفة هي الغرفة الثالثة عن اليمين.

أما الجزء الثاني فيتعلق بالنزل نفسه. كان قد أجرى جميع المعاملات اللازمة عند كاتب العدل في عاليه. لقد أصبح النزل ملكاً لجدتي.

ـ لكن لماذا اختار تلك الغرفة بالذات؟ سألتني «س.».

ـ لأن جده كاد أن يموت فيها. قبل زمن بعيد. حين كان مسجوناً مع شخص مصاب بالسلّ في سرايا البرج.

ـ والآن، النزل لك.

ـ لي. صحيح.

ـ وأهلك يريدونك أن تبيعه؟

ـ صحيح.

ـ وأنت طبعاً لا تريد.

أهز رأسي أن نعم، فتشرد نظراتها عبر النافذة. أنظر إلى حيث تنظر فأرى سرب الحمام يحلق فوق النزل ويرسم دائرة حول الغابة ثم يغط على حافة السور الحجري.

تبتسم «س.»: لقد تذكرت قصة تاج محل. أليست هي القصة نفسها تقريباً؟ رجل تموت زوجته، فيبني لها أجمل قبر في العالم. إنها تشبهها.

أجبتها أنها أيضاً قصة الإهرامات. لا بدّ وأن جورجي كان مولعاً بزيارتها أيام كان في مصر. خوفو وخفرع ومنقرع.

وقلت لها: «بهذا النزل بات الأخوان بابازواغلي قصة بلدتنا. وخالاتي طبعاً لا يعجبهن ذلك. يريدونني أن أبيع النزل لأنهن يعرفن أن شاريه سيقوم بهدمه. إنه قديم وليس على الموضة. منذ أن بُني لم يكن على الموضة. قبل أن يصبح لي كان لجدتي. وقبل أن يكون لجدتي كان لجورجي. جورجي بناه. جدتي رفضت أن تبيعه. فنبذوها وجعلوا حياتها لا تُطاق. لكنها لم تهتم. قالت لي إنها لم تهتم. والآن دوري».

أخذت «س.» مني الكوب المليء بالويسكي.

قالت: «تعالَ».

على السرير نامت فوقي. في يدها رائحة تبغ.

(أسرار)

قالت لي: أخبرني أسرارك، أريد أن أعرف جميع أسرارك. كل ما فعلته في حياتك.

قلت لها: أحب البيتلز كثيراً. لا أحب نجيب محفوظ. وأحبك.

قالت لي: أخبرني عن المدرسة الداخلية.

قلت لها: أجمل ما في المدرسة الداخلية كان الهروب من المدرسة الداخلية. كنت أتسلق باب الحديقة وأذهب إلى الشوارع. ولا أعود إلاَّ قبيل هبوط الظلام.

قالت لي: ولم تقع في الحب أبداً.

قلت لها: وماذا أفعل على هذا السرير معك؟

حين تضحك تظهر لها غمازتان.

(الصورة)

أخرجتُ ألبوم الصور من خزانة جدتي ونزلت إلى المطبخ. كانت «س.» في قميص النوم تعد لنا بعض الشاي. أجلستها في حضني. أخذنا نتفرج على الصور.

سكبت الشاي لي في كوب زجاجي شفاف. وسكبته لها في فنجان.

سألتني: ما هذا؟

كانت تشير إلى مبنى كبير وقديم يظهر في خلفية صورة.

ـ إنها الكرخانة التي أخبرتك عنها. هناك أخبر بورتاليس جدتي حكاية الفراشة الزرقاء.

وضعت لها ملعقتي سكر، ولي ملعقة واحدة. كانت مأخوذة بالصور القديمة. قالت إن الصور القديمة تسحرها دائماً.

أشعلت لنفسها سيجارة. كادت القداحة أن تقع من يدها. لو وقعت كانت سقطت في فنجان الشاي.

قلت لها: هل تعرفين كيف اكتشف الصينيون الحرير؟

كان ذلك قبل 3 آلاف سنة من ميلاد المسيح. الأميرة لاي ـ تسو، الزوجة الأولى للإمبراطور هوانغ ـ تي، كانت تتجول في حديقة القصر حين أعجبها منظر الشرانق البيضاء فوق الأوراق العريضة لشجرة التوت. فوجدت نفسها تنزع بعض الشرانق عن الأوراق الخضراء وتحملها إلى داخل القصر. في الداخل كان الخدم قد أعدوا لها فنجاناً من الشاي. جلست كي تشربه ووضعت الشرانق إلى جانبه على الطاولة. كانت تتفحص الشرانق

بأصابعها وبينما تحمل واحدة منها سقطت الشرنقة في كوب الشاي الساخن. والذي حصل أن الخيط انحل في الكوب، وأن المادة الصمغيّة ذابت عنه في المياه الساخنة. وحين أمسكت بطرف الخيط مستخدمة عوداً وأخذت تسحبه من الكوب أدهشها طوله، كما أدهشتها نعومته. وهكذا تمّ اكتشاف الحرير. وقام الصينيون بحراسة سرهم هذا حتى عام 552 بعد ميلاد المسيح. ففي تلك السنة أرسل الإمبراطور البيزنطي راهبين من النساطرة إلى بلاد الصين لإكتشاف سر الحرير. في الغرب كانوا آنذاك يحسبون أن الحرير هو شجرة تنبت في الصين فقط. والراهبان إكتشفا الحقيقة أخيراً وقاما بتهريب البيوض من داخل الصين إلى خارجها مستخدمين القصب. لأن القصب يكون مجوفاً من داخله. ولو أن الجنود اكتشفوا عملية التهريب لكانوا قطعوا رأسي الراهبين على الفور.

قالت: هذه القصة ألّفتها الآن، أليس كذلك؟

إبتسمتُ ورشفتُ شاياً من كوبي الشفاف.

وصلت «س.»، إلى الصورة، صورة حفل زفاف جدتي. نظرت إليّ وكانت عيناها مفتوحتين تماماً. كانت تحدق في وجه جدتي.

إبتسمتُ لها: إنها تشبهكِ، أليس كذلك؟

(جدتي)

في السنة الأخيرة من حياتها لم تعد جدتي تشبه نفسها. كأن الخرف الذي أصابها، من نشاف في شرايين الدماغ، قد جعلها

أيضاً تنسى ملامح وجهها فخبا الضوء في عينيها، ونبت شعر في وجهها.

في الليل كانت ترى كوابيس. تهتف بإسم أخيها الصغير وتحسب أنه ما يزال مصاباً بالحمى. أحياناً تحلم أن جرذاً قد دخل عبر الحائط المهدّم لغرفة القزّ، ثم تسلل إلى زاوية أنطون وبدأ يلتهمه. تقوم وهي تصرخ. نفتح البوابة ـ أنا أو خالتي الصغرى ـ فنجدها متكومة فوق السرير النحاسي العالي مبللة بالعرق، ورائحة البول تفوح من الأغطية.

استعادت أيام المجاعة. والخوف من الموت جوعاً.

كانت تذهب إلى الساحة وتشتري أربعة أو خمسة أكياس خبز ثم تعود بها إلى البيت وتكوّمها في الثلاجة. وبعد ساعتين تنسى أنها ذهبت إلى الساحة قبل قليل، فتنتعل الجزمة مرة أخرى وتمضي لتشتري المزيد من الخبز.

تقوس ظهرها. وبدا أنها تتضاءل. كأن عظامها تنكمش. كأنها تذوب في الهواء. لم تعد تغفو إلاّ متكومة حول نفسها. كأنها دودة. والبطانية تلفها.

لم تعد تعرف بناتها. أحياناً كانت تناديني: أنطون! تعطلت كليتها اليمنى ثم اليسرى. وضع لها الطبيب إنبوباً لإخراج القاذورات من جسمها. لم يعد بمقدورها أن تمضغ اللحم أو حتى الخبز. فقط تأكل الخضار المسلوقة. وتشرب الحساء.

الحليب كان يجبرها على التقيؤ بسبب من حساسية في غشاء معدتها.

هزلت ساقاها حتى بات جذعها ثقيلاً جداً. فقدت القدرة

على المشي. أخذت تحلم بالثلج. ترى الثلج يغطي العالم وترى نفسها تركض ولا تتوقف عن الركض وأشجار التوت تحيط بها.

لم تلبث أن ماتت، وعيناها معلقتان بالضوء الأبيض الداخل عبر النافذة. وكنت أجلس على كرسي قرب سريرها، والثلج يتساقط في الخارج.

(الربيع)

الشتاء أوشك على الإنتهاء. البارحة ليلاً لم أشعل الوجاق. إرتديت كنزة صوف فوق البيجامة وسهرت على الكنبة وقرأت الرواية من بدايتها. فيها مقاطع أعجبتني، هناك مقاطع أخرى كرهتها بقوة.

قبل قليل إستيقظت وقلبي ينبض كطبل. حاولت أن أتذكر الكابوس فلم أستطع ذلك.

فتحت الستائر فرأيت الضوء يقع على النزل، ورأيت براعم خضراء تظهر فوق أغصان الكرزات الثلاث. فجأة تذكرت الكابوس: كان الظلام يهبط وكنت أمشي على طريق لا أعرفها. إني أحاول إيقاف سيارة. لكن السيارات تعبر بمحاذاتي مسرعة ولا تتوقف أبداً. ثم أخذ الضباب يغطي الطريق وعرفت أنني سأختفي.

ولن يبحث عني أحد.

(الفتاة التي تركتني)

كنت جالساً مع «س.» في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية. منذ ثلاثة أشهر لا نرى بعضنا البعض إلاَّ مرة أو مرتين

خلال الأسبوع الواحد. كنت أعرف أنها قد اتخذت قرارها. وكنت قررت أن أتصرف كمن لا يعرف شيئاً. حصل هذا قبل سنتين من الآن.

أردت أن أجعل ذلك صعباً بالنسبة إليها.

لم أنجح، نظرت إليّ وقالت: سأتركك، سأسافر.

لم تقل إنها ستسافر معه. مع الرجل الذي يريد أن يتزوجها. ذلك الرجل الذي يقطن في لندن.

قالت: سأتركك. سأسافر.

وقامت وغادرت المكتبة. بعد ذلك لن أراها أبداً.

نظرت حولي. طلاب يقرأون في كتب. ضوء النهار يدخل عبر النوافذ. الرفوف مليئة بالمجلدات. البلاط نظيف. الهواء الذي يخرج من المكيّف بارد بعض الشيء. وفهمت: لقد تركتني.

وسألت نفسي: أما زلت أحبها؟ والحب؟

الحب، قلت، وترجمت الكلمة إلى الإنكليزية: Love.

ووقفت ومشيت حتى الزاوية وأخرجت من رفٍ مزدحم بالمجلدات أحد أجزاء الموسوعة «أميركانا». ثم عدت إلى طاولتي ـ إلى الطاولة حيث كانت «س.» تجلس قبل لحظات ـ وفتحت الكتاب.

الصفحة 808 صورة لزوج من عصافير الحب. لا أجد كلمة Love. أقرأ: Love Apple. أي تفاحة الحب. ما هي هذه التفاحة؟ هل هي التفاحة التي أكلها آدم في الجنة. لا، إنها

الطماطم. البندورة. تفاحة الحب هو اسم قديم لثمرة الطماطم. اسم أطلق على هذه الثمرة خلال القرن السادس عشر. في فرنسا. ربما في مزرعة رجل يدعى Riad.

ثم أقرأ: Love For Love. الحب من أجل الحب. لكني لا أعثر على تفسير واحد لكلمة «حب».

وأقرأ Love-In-A-Mist. الحب في الضباب. اسم نبات أوروبي، أزهاره بيضاء وزرقاء. أوراقه خضراء لماعة. يسمى أيضاً: الشيطان في الدغل.

في المناخات المعتدلة تُزرع بذور هذه النبتة خلال فصل الخريف. أما في أنواع المناخ الأخرى، فمن الأفضل زراعتها خلال الربيع، أي بعد زوال خطر الثلج والجليد.

طبعاً، الموسوعة بالإنكليزية. لكني دائماً أترجم الكلمات إلى العربية في داخل رأسي بينما أقرأ. وأفعل الشيء نفسه بينما أستمع إلى الأغاني الأجنبية.

وتساءلت: هل زُرعت بذور حبي لـ «س.» وحبها لي قبل زوال خطر الجليد؟ أم أنها زُرعت في الوقت المناسب لكن المناخ تبدّل فجأة وأفسد كل شيء؟ ومن جلب هذا المناخ؟ أنا أم الرجل القادم من لندن؟

وأقرأ Love-Lies-Bleeding. الحب يتمدد نازفاً. أيضاً اسم نبتة من نبات الحدائق.

وأقرأ Love Song of J. Alfred Prufrock. واحدة من أشهر قصائد القرن العشرين. للشاعر ت.س. إليوت.

محاولة للتأمل في الذات. بورتريه كوميدي وتراجيدي لرجل

يمجد وحدته. مونولوغ داخلي. دعنا نذهب إذن، أنا وأنت. حين المساء يمتد في مواجهة السماء. كمريض ممدد على الطاولة... كان يجب عليّ أن أكون زوجاً من المخالب تمزق أراضي المحيطات الصامتة. لا. هذه أسوأ ترجمة ممكنة.

وفي أسفل الصفحة: Love Bird. طيور معروفة بالرقّة. من طيور إفريقيا ومدغشقر. ألوانها خضراء وحمراء وزرقاء وصفراء. يعيشون ضمن أزواج تحب العزلة. تبني أعشاشها في تجاويف الأشجار. حين تولد صغارها تكون عمياء.

أغلقت الكتاب. أشعلت سيجارة. جاءت واحدة من موظفات المكتبة وقالت لي: عفواً، التدخين ممنوع هنا.

غادرت المكتبة. مشيت حتى بناية البنروز. صعدت إلى الطابق السادس. وقفت أتأمل البحر والقبة الفضّيّة لمرصد فانديك. كانت هناك طيور نوارس بيضاء تحوم فوق البحر. ورأيت الحمام البري يتنقل بين الأشجار تحتي. أشعلت سيجارة أخرى ثم جلست على الأرض.

أسندت ظهري إلى الحائط وأغمضت عينيّ.

(سؤال)

ماذا سأفعل بعد أن أنتهي من كتابة هذه الرواية؟ لماذا لا أسافر إلى مكان بعيد، وأترك الكتابة، وأبدأ حياة جديدة، فأنا ما زلت في الثامنة والعشرين فقط؟

أقدر الآن أن أبيع النزل. أقصد بعد الإنتهاء من هذه الرواية. فالكتاب ينوب عن هرم. أوليس كذلك؟

النزل يجب أن يبقى كي لا تموت الحكاية. أما الآن وقد كتبتها، فما الضرورة من بقاء النزل؟

لكن، إلى أين أسافر؟ ربما أسافر إلى ألمانيا في البداية. فأتأكد من حكاية جوزف. من حكاية جورجي عن جوزف. أبحث عن ذلك المصح وأبحث عن المقبرة. ولن أكون أول من فعل هذا. لأن جدي قد سبقني إلى هناك على أغلب الظن. نعم، إلى ألمانيا. ولِمَ لا؟

لكن هل أقدر على نسيان «س.»؟

هل أقدر على نسيان فتاة عاشت في داخلي طوال سنوات، فجعلت مني بيتها، حتى وجدتني لا أشهق من الهواء إلاَّ ما تزفره رئتاها. ثم، فجأة، شقّت طريقها إلى خارجي وتركتني ومضت بعيداً.

لكن هل حصل ذلك فجأة حقاً؟

وما الفرق؟

ذات مرة أردت أن أقول لها:

- س.، لا تتركيني أبداً. لا تتركيني فأبقى وحيداً كبيت مهجور. كشرنقة فارغة وسوداء.

ولم أقل. خفت أن تقول لي إني لن أكون مهجوراً أبداً حتى ولو تركتني.

- لن تكون مهجوراً أبداً حتى ولو تركتك. لأنك مسكون بالحكايات فقط. بالحكايات وبجدتك وبهذه القصة عن الفراشة الزرقاء.

كنت أخاف أن أكتشف فيها لؤماً لا أقدر على تحمّله.

وكنت أخاف أيضاً أن أرى نفسي على تلك الصورة: صورة الرجل الذي فقد أحاسيسه لأن الدود قد جوّفه من الداخل وأفرغه من كل شيء فيه.

لم أقل. ولم تقل.

وذات يوم تركتني، فبقيت وحدي مع جدتي والحكايات.

ومع ذكرى «س.».

الآن أكتب.

ولا أريد لهذه الرواية أن تنتهي أبداً. وأريدها أن تأكلني كأنها دودة وكأنني شجرة توت.

وبعد أن أتلاشى في داخلها تتحول إلى فراشة زرقاء وتطير.

لأنه ليس لي غيرها.

لأني أعرف هذا الآن.

روايات للمؤلف

1- سيد العتمة، 1992.

2- شاي أسود، 1995.

3- البيت الأخير، 1996.

4- الفراشة الزرقاء، 1996.

5- رالف رزق الله في المرآة، 1997.

6- كنت أميراً، 1997.

7- نظرة أخيرة على كين ساي، 1998.

8- يوسف الإنجليزي، 1999.

9- رحلة الغرناطي، 2002.

10- بيروت مدينة العالم: الجزء الأول، 2003.

11- بيريتوس: مدينة تحت الأرض، 2005.

12- بيروت مدينة العالم: الجزء الثاني، 2005.

13- تقرير ميليس، 2005.

14- بيروت مدينة العالم: الجزء الثالث، 2007.

15- الاعترافات، 2008.

16- أميركا، 2009.

17- دروز بلغراد، 2010.

18- طيور الهوليداي إن، 2011.

ketab.me
Best Books

ربيع جابر

الفراشة الزرقاء

صدرت الطبعة الأولى من رواية «الفراشة الزرقاء» في أيلول (سبتمبر) 1996 تحت اسم «نور خاطر» وحمل غلافها الأخير نبذة عن المؤلف: «يقيم نور خاطر مع زوجته وولديه في المانيا. مواليد بيروت 1961...»

اليوم انتهيت من قراءة رواية وهي أول عمل لشاب يقيم في ألمانيا، اسمه «نور خاطر»، اسم الرواية «الفراشة الزرقاء». أحببت الرواية كثيراً، وأريد أن أهنىء صاحبها، لا أعرف في أي مكان يقيم لكنه يبدو حساساً، أنيقاً، قاسياً، ومحباً أيضاً، ولذلك كتب هذه الرواية، وبهذا الشكل الذي أحببته كثيراً.

عبد الرحمن منيف

من كتاب «في أدب الصداقة»

لوحة الغلاف بريشة سي واي تومبلي

ISBN 978-9953-582-53-5
9 789953 582535

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ القاهرة ـ تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar.altanweer.com